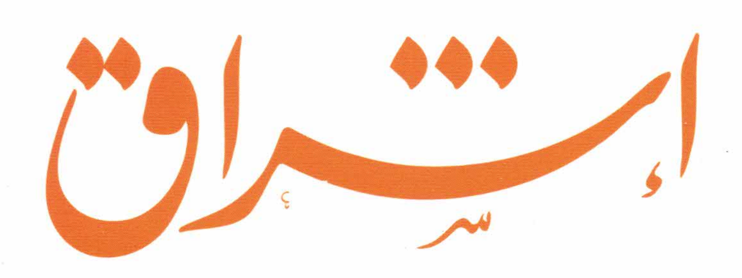
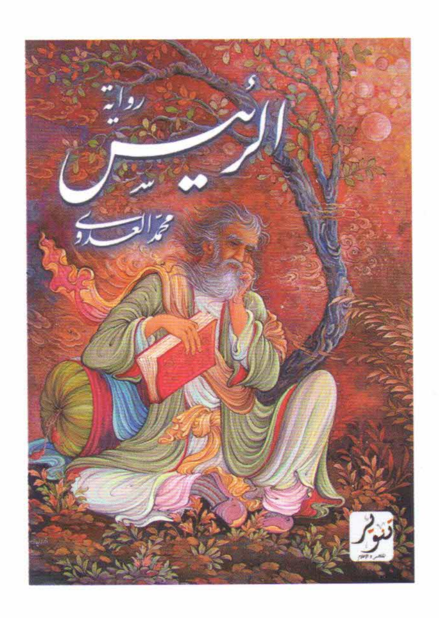


محمد العدوي

رواية

تنوير
للنشر والإعلام

مؤلف الرواية الأكثر مبيعًا



"فاجأني محمد العدوي بعملٍ تمنيتُ لو أكون كاتبه، وهو هذه الرواية "الرئيس"، التي أرى أنها عمل كبير، لكاتب ولد كبيرًا؛ فيها عذوبة اللغة المحلقة، وشعرية التأمل، وجدية البحث، وخصوبة الخيال؛ فهي عملُ موهبةٍ حقيقية. فيها جرأةٌ فكرية، ونبلٌ إنساني، ومزج مقتدر بين ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون؛ في رحلة بديعة لتعقُّب السيرة الباهرة لابن سينا، من القاهرة لطهران، ومن زمن الكاتب لزمن المكتوب عنه. ولم يكن الكاتب هيابًا أبدًا برغم رقة عوده ورهافة مشاعره؛ فاقتحم أفكارًا إشكالية كبرى بطمأنينة قلب سليم."

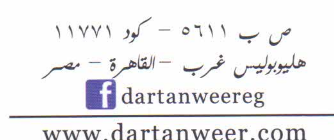
محمد المخزنجي

محمد العدوي

طبيب عيون وأديب وكاتب مصري. نشر عام ٢٠٠٨ مجموعته القصصية الوحيدة: "حين يضحك البحر". وقد نشرت له دار تنوير للنشر والإعلام روايته الثانية: "الرئيس" عام ٢٠١٣. وهذه هي روايته الأولى، التي نُشرت لأول مرة عام ٢٠٠٩؛ في طبعتها المنقّحة. وهو يكتُب المقال، ويُدير حاليًا عدّة صفحات على موقع فيسبوك منها صفحة "مدن الأئمّة"؛ التي توثّق تاريخ المدن التي سكنها العلماء المسلمون على مرّ العصور.



ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر



www.dartanweer.com



الخطوط للفنان المصري:
عبدالغني شعير


رواية
إشراق
محمد العدوي

محمد العدوي





الطبعة الأولى
٢٠١٤م/١٤٣٦هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/١٩٣٥١



الخطوط للفنان المصري:
عبدالغني شعير



ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر
البريد الإلكتروني: info@dartanweer.com
dartanweereg

www.dartanweer.com

بسم الله الرحمن الرحيم

"ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين"

صدق الله العظيم

(فصلت: ٣٣)

لا يشغل الحياةَ متى تعلمتَ المشي، لكنّها تحفظ آثار أقدامك؛
لتريكَ حين تصل في أي طريق سرت.

رواية

مبتدأ

تأتي البدايات متشابهة، لكنّنا نُفاجأ عند الوصول أنّ البدايات المتشابهة لا تعني نهايات واحدة، وإن أصرّت الحياة على منح الجميع نهاية واحدة لا تتغير.

رغم المشابهة في الصورة، إلّا أنّها أبدًا ليست مُتشابهة.

(١)

لا أذكر على وجه التحديد متى بدأ إدراكي لهذه الكلمة، متى سمعتها أول مرة، متى جرّبت أحرُفها، ومتى أصبحت علامةً على أمرٍ محددٍ في خاطري؛ لا يسهُل التوصُّل لمنابع الأنهار حين تكون غائرة في الصخور البعيدة، ربما نرى الماء المنبعِث منها، لكن الوصول إلى حيثُ ينبعُ الماء، قد تزيد خطورته على خطورة النوم في عرض هذه الأنهار.

حين صرخ فيّ: «يا أخي؛ بقول لك ربنا اللي بيقول! إيه؟ إنت كلام ربنا عندك ملهوش قيمة؟!».
تفجر في خاطري هذا السؤال:
لماذا غضب حين لم يَجِد اهتمامًا بما يقول؟

أستطيع القول إنه نجح في صنع حالة من الارتباك لديّ، شعرتُ أن المشكلة لا بدّ تكمُن فيّ أنا؛ الذي لم يجد في حديثه المرفوع إلى الله شيئًا يستحق الاهتمام. هل غضِب لأني لم أقبل حديثه هو؟ أم لأنني لم أقبل حديثًا مرويًا عن الله؟

ربما كان إحساسًا عميقًا بالذنب، هو الذي حملني على التفتيش عن وجود الله فيّ. ألا يعني حديث الله لي شيئًا كما يقول هو؟

أين يكمُن الله في نفسي؟
متى عرفته أول مرة؟
كيف عرفته؟
وهل يعرفه هو أكثر من معرفتي به؟

* * * * *

حين كنت طفلًا، اعتدت سماع تحذير أمي وأنا أحكي لها عمّا حدث في المدرسة: إن الله يعاقب الكذابين في النار، وأني إذا لم آكل شطائري التي تعِدُّها لي، وتخلصت منها عندما لا تعجبني؛ يعاقبني الله أيضًا في النار.

وكنت أحفظ من أبي أن «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي».

يفرح أبي كثيرًا حين يطلب مني أن أعيدها، والكثيرون ممن كانوا يرونني وأنا صغير، يفاخرهم أبي بأنني أحفظ الفاتحة والمعوذات؛ يسألونني ذات السؤال: «من ربك؟»، ويدعون له بالبركة في حين أجيب إجاباته التي حفّظنيها.

لم أشعر في حينها بأية علاقة بين الله، الذي هو ربي؛ والله الذي يملك النار التي يُعَاقَب بها الذين يحكون حكايات لم تقع. لم يجد عقلي في حينها صلة بينهما، إلا حين توفي جدي لأمي وعلّلوا ذلك بأنه ذهبَ إلى الله.

كنت أحبّ جدي كثيرًا. لحيته الخفيفة، وشعره الأبيض الرقيق، ووجهه المحمر، وغليونه الذي لا يفارق يده، وثيابه الداكنة دائمًا، والمسدس الذي يحمله في سترته، وسائقه الذي لا يُغادِر سيارته أبدًا في انتظاره حين يخرج؛

كل ذلك كان يصنع له صورة مميزة في نفسي، صورة تُغاير كل من أعرف؛ تغاير جدي الآخر وأبي والأستاذ إحسان مدير مدرستي.

لا يمكن بحال أن يذهب جدي إلى النار. حين أهداني علبة ألوان خشبية فرحت بها، لكنني أخبرته أني أريد بدلة كالتي يرتديها، ومسدسًا كالذي يحمله معه دائمًا. لم أعرف في أي شيء يستخدمون المسدسات، لكني أردت أن أشبهه. لم يتأخر، وأحضر لي بدلة بُنية كانت أكبر مني؛ فبقيت لديّ عدة سنوات حتى استطعتُ ارتداءَها، ومسدسًا بطلقاتٍ يُصدِرُ صوتًا قويًّا وشررًا ضعيفًا، أقتنعُ أنه يشبه مُسدسه إلى حدّ كبير. وحين كان يرسلني لأشتري له الصحف، ويسميها باسمها؛ أقول له ألا يكفي اسمٌ واحدٌ وصحيفةٌ واحدةٌ، ما دامت الأحداث كلها واحدة؛ فلا بد أنها ستتكرر في كل الصحف؟ يبتسم وهو يقول لأمي إنني لا أفكر كما يفكر الأطفال، ثم يخبرني إن كون الحدث حقيقة واحدة ثابتة، لا يعني أن رؤيتنا له صورة واحدة ثابتة، وهو ما لم أفهمه في حينها.

كان أبي يقول إن الذين يدخنون يدخلون النار. يضحك وهو يقولها لجدي حين يهمّ بإشعال سيجارته أمامنا؛ فيبتسم جدي ويقول: «إن الله غفور رحيم».

حين أخبرت أمي بذلك، قالت لي إن جدي ذهب إلى الجنة.

سألتها: «ما الجنة؟».

قالت: «إنها مكانٌ جميلٌ يذهب إليه من نحبّ حينما يفارقوننا».

قلت: «وهل يملكها الله أيضًا؟».

قالت: «نعم، إن الله يملكها كما يملك النار».
سألتها: «وهل سنذهب نحن أيضًا إلى هناك؟».
قالت: «نعم».

جدي لم يذهب إلى النار كما تقول أمي، مع أنّه كان يدخن؛ وأنا سألحق به، مع أني أحكي لأمي حكايات لم تقع؛ وأتخلص من شطائري التي لا أحبها.

لم أفهم لماذا وُجِدَتْ النار ما دام لن يدخلها المدخنون والذين يحكون حكاياتٍ لم تقع.

وحين سألتُ أمي: «مَن يذهب إلى النار إذًا؟». قالت: «إنما يذهب إليها الكفار؛ الذين يؤذون الناس، ويأخذون ما ليس لهم ويكذبون».

أضافت إجابتها كلمة جديدة لم أفهمها:
مَن هم الكفار؟
ولماذا يؤذون الناس، ويأخذون ما ليس لهم؟
وهل كلّ من يؤذي الناس ويأخذ ما ليس له؛ هو من هؤلاء الكفار الذين ينتهون إلى النار؟

كانت كلُّ هذه الأسئلة بغير إجابات في العادة، ولم يكن غياب الإجابات ذا قيمةٍ كبيرةٍ في الحقيقة؛ لأنّني سريعًا ما كنت أنساها ولا أشغل بالي بها. إذ لم يُصادِفني أحد يحمل هذا اللقب، لا في المدرسة ولا في الشارع، ولا حتى في برامج الصور المتحركة التي أتابعها بانتظام.

عرفت بعد ذلك، في دروس السيرة؛ مَن هم الكفار. هم الذين آذوا رسول الله ﷺ حين طلب منهم ألا يعبدوا الأصنام، وأن يعبدوا الله الواحد.

أبو جهل وأبو لهب وزوجته، التي كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق الرسول ﷺ، أو تضع القاذورات على رأسه وهو يصلي؛ هم الكفار.

وهؤلاء الكفار، انتصر الرسول ﷺ عليهم في آخر الأمر؛ وعاد إلى مكة بعد أن كان قد أُخْرِج منها.

وَصفَتْ كتب السيرة كل الذين كذّبوا الرسل بذلك، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؛ جميعهم كان حولهم كفار لا يؤمنون بهم، وجميعهم انتصرت عليهم الرسل في النهاية. لم يذكر لنا أستاذ السيرة كفارًا كانت لهم الغلبة على نبيهم، هود وصالح ولوط؛ كل هؤلاء أُفْنِي أقوامهم، لأنهم كذبوا ما جاءت به الأنبياء.

ليس في الدنيا الآن كفار إذًا، لأنه لم يعد هناك أنبياء؛ هكذا فكرت وقتها. فآخر الكفار انتصر عليهم الرسول ﷺ في مكة. أخبرونا أنه حين توفي الرسول ﷺ كانت كل جزيرة العرب تؤمن بالله الواحد.

سألت في ذلك أستاذ التاريخ؛ فأخبرني أن هناك كُفارًا لم يروا رسول الله ﷺ ولم يعرفوه، وهؤلاء حَرِصَ الصحابة على إيصال دعوة الرسول إليهم، والذين كذبوها منهم بقوا كفارًا، أما الذين قبلوها فقد أصبحوا هم أيضًا مؤمنين.

قال: «إن اليهود والنصارى أيضًا قد أصبحوا كفارًا».

قلت: «لكنهم لم يكذّبوا أنبياءَهم؛ أليس اليهود هم من آمنوا بموسى، والنصارى هم الذين آمنوا بنبي الله عيسى؛ إنهم مؤمنون إذًا لم يكذبوا رسلهم؟».
قال: «لكنهم كذبوا الرسول محمد ﷺ، وقد أُرسل إليهم هم أيضًا، كما أُرسل إليهم من قبلُ أنبياؤهم موسى وعيسى».

حين كنت أسمع حكايات الصحابة مع رسول الله ﷺ، أو أشاهد في ذكرى الهجرة والمولد النبوي الأفلامَ التي تحكي قصته؛ كنت أتمنّى لو عشت معهم، أو كان بيننا نبيٌّ حيّ نحبه كما كانوا يحبونه. تحدُث لنا المعجزات التي تحدث لهم. كنت أتمنى مشاهدة البحر الذي انشقّ لسيدنا موسى، أو رؤية عين الصحابي التي ردّها الرسول ﷺ في مكانها.

ما أعجب منه الآن؛ أن هذه الحكايات لم تكن تلقى رفضًا في نفسي حينها، رغم بعدها عن التصديق العقلي؛ فلا البحر يمكن أن ينشق، أو العين الساقطة يمكن أن تعود، ومع ذلك كنت أصدّق دون أدنى رغبة في السؤال عن كيفية حدوث ذلك.

عرفتُ أنّ الأنبياء مخلوقات عظيمة، قد يشبهون الملائكة؛ لذلك يفعلون أفعالًا لا تشبِهُ أفعال البشر، ولذلك أيضًا تمنيت أن أكون معهم.

لا أعرف، لو عاصرت نبيًا من هؤلاء الأنبياء؛ إلى أي طائفة كنت سأنحاز؟
إلي تلك التي تلتف حولهم، أم التي تعاديهم؟
هل يختار الناس الفريق الذي ينتمون إليه؟
وكيف يختارونه؟

كيف يصبح الناس أنبياءَ؟ أعرف أنّ الله هو الذي يختار مَن يصبح نبيًّا؛ وأتساءل: «لماذا لا أكون أنا أيضًا نبيًّا، أريد أن أصبح نبيًّا كنبيّ الله سليمان».

كل الأنبياء الذين عرفتهم كانوا فقراء عداه هو؛ فقد كان مَلِكًا أيضًا. أحبّ دومًا الاستماع لحكايته من أي أحد. في المدرسة؛ لا يسألنا أستاذٌ عمّا نريد ونحن في وقت فراغ، إلا ويكون صوتي الأول، أريد حكاية سيدنا سليمان. وفي البيت حين أجد فسحة في وقت أبي؛ أطلب منه أن يحكي لي حكايته.

أيمكنني أن أصبح نبيًّا يومًا ما؟!

(٢)

في تلك المدينة البعيدة؛ كنا أغرابًا لا نعرف أحدًا. حياتنا كلّها لم تتعدَّ أفرادًا يمكن عدّهم على الكفّ الواحدة. لا اختلاط لنا بجيراننا، ولا أصدقاء كثيرين يزوروننا.

لم يكن هذا يمثل مشكلة بالنسبة لي؛ فوقتي كله ممتلئ، وإن كنتُ أتعجب الآن بأي شيء كنت أملؤه في فراغ تلك المدينة البعيدة.

فقط حين مرضت أمي؛ شعرتُ بأن هذا الفراغ قد اتسع، وأن يديّ اللتين لم أشعر أبدًا بفراغهما، قد أصبحتا تقبضان على الهواء. كان بكاؤها وهي تتألم في غياب أبي يُشعِرُني بعجزٍ كبير.

وحدي في المدينة الغريبة؛ أحاول أن أبحث لها عمّا يُخفف عنها.
لا شيء يمكنك فعله، لا سيّما إن كُنتَ مقيّدًا بذاتك؛ مقيّدًا بأشياءَ لا تراها. لا أعرف أحدًا أطلب منه المساعدة، ولا تطاوعني يدي على طرق باب جار لا أعرفه.

وجدت نفسي أتذكر -مما تعلمناه في المدرسة- أن الدعاء يهبنا ما نريد. لم أكن قد جربت شيئًا مما أدرسه قبل ذلك، بل لم أكن أشعر أن صلةً ما تربط بين

عالم المدرسة وعالم البيت؛ حتى زملاء المدرسة لم تكن لي بهم صلة إذا انتهى العام الدراسي وافترقنا.

في ذلك اليوم، توضّأتُ وصليتُ. تعجّلتُ الوصول إلى السجود الذي أعلم أن الدعاء يكون فيه. ودعوت: «يا رب ماما تعبانة قوي، وأنا مش عارف أعمل لها حاجة؛ خفّف عنها واشفيها يا رب».

كررت الدعاء بذات الصيغة وحدها، وكلّما تكرر شعرت به يعلو في نفسي؛ كأنّ قوة مُختفية فيّ تريد أن تطير به عاليًا. وكلما ازداد خفقان هذه القوة؛ شعرت أن حملًا ثقيلًا ينزاح عن صدري، وأنّ نسيمًا باردًا يحُلّ مكانه، حتى احتواني كأنه حضنٌ عميقٌ دافئٌ لا أريد مفارقته؛ فبقيت أدعو حتى نمت في مكاني.

كان الشعور جديدًا لم أعرفه من قبل. وحين صحوتُ؛ كنت خفيفًا سعيدًا يملؤني اطمئنانٌ وشعورٌ أن أمّي ستكون بخير.

أُصلّي كلّ يوم قبل أن أنام وأدعو لها، حتى يحتويني ذلك الحضن الدافئ؛ فأنام.

*****

قبل ذلك اليوم لم تكن علاقتي بالصلاة واضحة، إلّا حين يسألني أبي عنها وأنا أتابع أحد برامج الرسوم المتحركة التي أحبها، فأجيبه بالإيجاب دومًا؛ لئلّا يطلب مني ترك ما أفعل من أجل الصلاة. وحين عرف ذلك؛ لم يعُد يطلب مني القيام. صار يقول لي: «خلّص اللي في إيدك وقوم صلّي»، ولم

يكن أحبَ إليّ من هذه العبارة؛ التي تُذهب عني عبء إحساس بالضيق، وحرارة تعلو وجهي وأنا أخبره أني صليت، فأقوم أحيانًا ولا أقوم كثيرًا.

بدأت أضيف في جملة الدعاء، التي لم تتغير؛ طلبات أخرى جديدة: «يا رب أبقى الأول في المدرسة». أتلهف للصلاة لأدعو بهذا الدعاء، ثم أعود إلى مذاكرتي وأنا أتعجل الصلاة التي بعدها، حتى انتهى العام وأنا الأول للمرّة الأولى.

أصبحت أشعر أنّني والله صديقان، فهو لا يردُّ لي طلبًا ويحبني، وأنا أيضًا أحبه، أطلب منه كل شيء أريده، وهو يعطيني ما أطلب.

كلما زاد لي حلمٌ؛ زِدتُ في الدعاء جملة. أكرّر أدعيتي بصيغها. تمنحني سعادة كبيرة وأنا أدعو بها، وسعادة أكبر عندما تتحقق.

لم يخب دُعائي مرة واحدة في تلك الفترة، حتى تيقنت أنه ليس بيني وبين أي شيء أريده إلا طلبه من الله.

أخبر الله في دعائي بكل شيء.

حين أغضب من زملائي؛ أخبره وأسأله إن كنت على صواب أم لا. أشعر أنه لا يمكن أن توجد مشكلة أعجز عن حلها، ما دام الله قريبًا مني إلى هذا الحد.

لم أعد أشعر بالقلق الشديد حين تتألم أمي؛ لأني أعلم أن الله لن يتركها، ولا حين يغيب أبي أيامًا طويلة في سفره. حتى دروس اللغة الإنجليزية التي

لم أكن أحبها، والتي كانت أثقل أوقات المدرسة عليّ؛ أصبحَتْ خفيفةً على نفسي وأصبح استذكارها ممتعًا أيضًا.

غيَّرني الدعاء كثيرًا. تعلقت كل أشيائي به. أصبحت أكثر اهتمامًا بدروسي، وانتظمت أوقاتي، وأدركت معنى حمل ساعة معصم، وتعلمت كيف أريد.

تعلمت أنه لا يحجبني عن أي شيء إلا إرادَتُه. وحين أريد شيئًا سأطلبه من الله وأنا أسير إليه. ومهما تأخّر أو طال الطريق؛ فلا بدّ من الوصول إليه.

كانت تلك سعادة جديدة أعرفها.

«أن أريد»؛ صنعت لي حياة من العدم. حين لم يكن لدي شيء أريده، كانت الأيام كلّها متشابهة، حتى ألعابي كانت متشابهة؛ أشعر برتابتها ومللها وأنا أؤديها، فأتركها سريعًا دون أن أعرف لذلك سببًا.

حتى مذاكرتي كانت مملّة أيضًا. لم أكن أعرف لذلك سببًا واضحًا، وكنت أخشى غضب أمي إذا لم تأت نتيجتي حسنة. ورغم أن الجهد الذي صرت أبذله في المذاكرة، أقل بكثير مما كنت أفعل؛ إلّا أنني أصبحت أُحصِّلُ درجاتٍ أعلى بكثير مما كان.

كأنه كان ينقُصني أن أريد ذلك؛ أن أعرف سببًا لما أقوم به. لم تتغير طريقتي ولا ساعات مذاكرتي، ليس من شيء في ذلك قد تغير. كنتُ فقط أشعر «أني أريد»؛ فيتحقق لي ما أريده.

بقي دعاء نبي الله سليمان يراودني كثيرًا: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾.(١)

أسألُ أبي في ذلك؛ فيجيب إننا ندعو كريمًا لا حدود لعطائه. ومن حسن الأدب أن ندعوه بأشياء عظيمة؛ لأنه عظيم. لم أكن أستطيع إخبار أبي برغبتي في أن أشبه نبي الله سليمان، لكني وجدت ذلك مع الله. ورغم يقيني أن من تمام إجابة دعوة سيدنا سليمان، ألا ينال أحد بعده مثله؛ إلّا أنني أخبرت الله بما في نفسي.

أخبرته أني أريد أن أكون كنبيه سليمان. سأخبر نبي الله سليمان بذلك حين ألقاه في الجنة، وأقول له إن محبتي له هي التي منعتني أن أدعو بدعائه؛ لكني دعوت أن أشبهه.

(١) سورة ص؛ آية ٣٥.

(٣)

الشعور الذي يُلازمني حين أرى رانيا غريبٌ لم أعهده؛ شيء من سعادة وانقباض وبرودة تنتهي إلى بهجة لم أجرّبها من قبل، لا تشبه البهجة التي أحصل عليها حين أدعو، أو أحصل على شيء كنت أنتظره.

رانيا تعيش وحدها مع أبيها، بعد أن انفصلت عنه أمها وتزوجت في مدينة أخرى، وهي تدرس في نفس السنة التي أدرس فيها. منذ جاؤوا إلى عمارتنا، وهي تختلف إلينا كثيرًا؛ هربًا من وحدتها ومن قسوة أبيها، الذي طلّق زوجتين بعد أمّها.

تجلس مع أمي وأخواتي، وتكون غاية سعادتي؛ أن تطلُب كتابًا من كتبي، فتأتي أمي لتقول لي: «هات كتاب العلوم لرانيا، علشان نسيت كتابها في المدرسة».

كانت هذه العبارة وحدها كافية، لتطلق البرودة في كفّي وأنا أبحث لها عن الكتاب. وحين تطلب مني أن أصحبها لآخر الشارع؛ لأن صِبيَة هناك تعاكسها. أسير معها صامتًا جافّ الحلقِ لا أنطق، وأنا أسمع صوت قلبي يَدُقُّ عاليًا، وأخجل أن تسمع صوته. وحين أعود يخفّ صوته، ويُمسي جسدي أكثر خفة وحرية، وأظل مبتسمًا حتى أنام.

ويوم جمعتُ عليّ نفسي؛ وسألتها: «إزيك؟»، جاء جوابها: «كويسة»؛ كلمة صغرت أمامها كل كلمات اللغة التي أعرفها، وبقيت أستعيدها وأنا أشعر بفرحةٍ في نفسي لا أفهمها.

رطبت الأيام حلقي؛ فاتصل حديثنا، وغابت عني البرودة التي أشعر بها، وصوت قلبي الذي يخجلني، وبقيت لي الفرحة الهادئة حين ألقاها، وحين أذكرها إذا أويت إلى فراشي كل ليلة.

تحكي لي عن أمها وأبيها؛ عن شجاراتهم التي لم تعِ سواها. تترك معي رسائلها التي تكتبها لأمها؛ أضعها في البريد. لا يسمح لها أبوها بالاتصال بأمها إلا قليلًا، وحين تأتيها رسالة منها؛ تحملها لنا. نقرؤها معها. كانت أمها أكثر حضورًا في حديثها من أبيها البخيل، كما تصفه.

رانيا طويلة. بشرتها بيضاء، وشعرها بنيّ ضارب إلى الصفرة. كل ثيابها كعينيها؛ تميل إلى اللون الأزرق الذي تحبه، كالشمس تُدِرك أنها تُشرِق في هذا اللون أكثر من سواه.

كانت تشتري ثيابًا كثيرة. كل أسبوع تخرج وحدها إلى السوق، وحين تعود؛ تُرينا كل ما اشترتْه. تقيسه كله قبل أن تصعد إلى بيتها، لتضعه في خزانتها ولا تعود إليه. ليست هناك مناسبات كثيرة لكل هذه الثياب. غاية بهجتها أن نمتدح لها ثوبًا جديدًا أو عطرًا رقيقًا من تلك العطور التي كانت تضعها. أمها هي التي تُرسِلُ لها النقود التي تشتري بها. تقول لها في كل رسالة: «اشتري كل اللي نفسك فيه»، تضحك حين تصل لهذا الجزء من الرسالة؛ وهي تقول: «ماما عاوزاني أجيب كل اللي نفسي فيه!»، وذات

مرة قالت: «بس لو أعرف هوَّ إيه اللي نفسك فيه ده؟! كنت جبته على طول».

يحضرني عطرها الذي كانت تضعه، وأنا أكتب ذلك الآن، وتكبر صورتها في عيني؛ لأراها بذات إشراقها في نفسي ساعة كنت أحس خطوها أو أستشعر اقترابها. كانت تلك العلامة التي أدرك بها قربها؛ حين تشرق نفسي، وتصير خفيفة وليس حولي سبب واضح لذلك، فأعرف أن رانيا قريبة.

هكذا تكون أوليات إدراكنا لذواتنا. حدائق في نفوسنا تنتظر أن نكشفها من جديد؛ حتى تفوح. تسكننا بقوة، حتى إن ردمت الأيام أجزاءها، تبقى هي تنتظر يدك تنفض عنها ردمها؛ لتقول لك إنني هنا متى أردتني؛ قريبة إليك، فكن قريبًا أنت أيضًا.

زدت في دعائي هذا السطر الجديد:

«يا رب تبقى رانيا قريبة مني، وما تبعدش أبدًا».

لا أعرف لماذا فكرت في ذلك، ولا كيف فعلته. كنت أدعو كما أفعل دومًا، وكلما خَفَّت نفسي في الدعاء؛ أشعر أن رانيا حاضرة معي. لا أستطيع أن أفصل كلا الإحساسين اللذين يجتمعان في نفسي ساعتها؛ كالعطور الكثيرة المخلوطة لا تشيع فيك شعورًا واحدًا واضحًا، كما قد يفعل عطر واحد، ولو كان ضعيفًا.

لم تستقر العبارة بهدوء في صيغة الدعاء، كما اعتدت. فكرت أن دعائي قد أصبح طويلًا؛ لكثرة الأشياء التي وضعتها فيه، فضاق عن رانيا. لكنني أضع أي شيء آخر، فلا أشعر بما أشعر به من غرابة.

بعد فترة من معرفتي برانيا؛ استعملتُ لفظ الحب، لأول مرة في حياتي؛ وأنا أخبر الله بما أشعر به.
أخبرته أنني أحببت صبية جميلة اسمها رانيا، وأني أريده أن يحفظها قريبة مني.
لم أكن أريد أكثر من ذلك. كان قربها وحده يُثمر بهجةً كبيرة في نفسي، لكنني دومًا كنت أشعر أن في الأمر شيئًا ما.

لا تستقر العبارة بسهولة في صيغة الدعاء مهما حاولت. كما أن إحساسًا غريبًا يحضرني إذا وصلت لهذه العبارة في الدعاء.

وأنا أدعو، أستطيع أن أعرف أي دعاء سيستجيبه الله سريعًا؛ من إحساسي ساعة الدعاء. جربت أن أدعو؛ فأشعر أنني لن أنتهي حتى يتحقق لي ما أريد. وأن أدعو بشيء؛ فأشعر أن شيئًا يشبهه سيحدث، لكنه لن يتحقق كما أريد. أما إحساسي هنا، فكان جديدًا جدًّا.

لأول مرة تنطفئ نفسي فجأة وأنا أدعو.

ألا يفرح الله حين أحب رانيا؟ ألا يفرح حين أخبره بما في نفسي لها؟ إنها تملؤني سعادة بحجم تلك التي يملؤني بها الدعاء.

لم أعبأ كثيرًا بهذا الإحساس، وألححت على دمجها في دعائي. والعبارة التي بدت غريبة أول الأمر؛ سرعان ما ذابت فيما حولها حتى أصبحت منها. وعاد دعائي هادئًا مستقرًّا يحتوي حلمي الجديد وصديقتي الجديدة، وإن خَفُتَ الدفء الذي اعتدته فيه.

لكن رانيا سافرت!
انتهى عقد أبيها، وسافرت فجأة دون إنذار.
وفجأة أُجرِّب الفقد لأول مرة في حياتي.
وأُجرِّب أيضًا ألا يُسعِفني دعائي.

هل غضب الله مني، لأني وضعت في الدعاء شيئًا غريبًا؟ هل كانت رانيا حقًّا غريبة على الدعاء؟

هل يغضب الله حينما نحب؟ أو يكره أن نخبره بذلك؟

بكيت لله كثيرًا؛ لأنه حرمني هذا الحلم. بكيت وأنا أخبره أنني زعلانٌ؛ لأنه خذلني هذه المرة. ليس في نفسي شرٌّ وليس في نفس رانيا شرّ. أنا أعرف نفسها جيدًا، كنت أجد طيبة نفسها وأنا أقرأ خطاباتها لأمها، وأنا أشتري لها هدية لأخيها من أمها، وأنا أحمل عنها حقائبها الصغيرة إذا خرجت تشتري لوازم البيت التي لم يكن يُحْضِرُها أبوها بانتظام، وأنا أتصفح معها عالمها النسويّ الصغير.

أصبح دعائي في تلك الفترة فاترًا لا حماس فيه. كففت عن إخبار الله بحزني على فقدها، ولم أعد أشعر برغبة في أن أطلب شيئًا آخر جديدًا، بل لم أعد أريد أي شيء. أصبحت مُغلق النفس يستوي حولها النور والظلمة، والشذى والقذى، يستوي الجوع والشبع، الضحك والحزن. توقفت كل المعاني التي تعلمتها للأشياء في حياتي.

سألت أستاذ التربية الإسلامية أسئلة كثيرة عن الدعاء.

هل يجاب على الحقيقة أم لا؟

ولماذا لا تجاب جميع الأدعية التي نطلبها؟ قال لي: «إننا ندعو لأن الله طلب منا ذلك، وهو أدرى بما ينفعنا. إننا قد ندعو بما ليس في مصلحتنا، وإن نظرتنا الصغيرة قد ترى في شيءٍ سعادة يخبئ الله لنا دونها سعادة أكبر».

حفظت كل الأحاديث التي تتحدث عن الدعاء. قرأت عن أوقاته، وما يعين على إجابته، ولم يخفف عني معرفتي أن الله حين لا يجيب دعاء؛ إنما يخبئ لنا أجمل منه.

ليس في الدنيا أجمل من رانيا، من صوتها، من حديثها، من ضحكها.
ليس أجمل من«كويسة» التي تجيب بها عن سؤالي: «إزيك».
ليس أجمل من غضبها؛ إذا جاءت عابسة من أبيها.
ليس من شيء أجمل منها في الدنيا.

* * * * *

بقيت لي من رانيا أشياء كانت أول ما وضعْت في صندوق ذاكرتي؛ رسالة تركتها معي أضعها في صندوق البريد لأمها، ودفتر كبير كنت أشرح لها فيه دروس العلوم.

أحرف جديدة لم تترتب بعد في كلمة.
وأحلام صغيرة لم تُولد.

(٤)

تبدأ إدراكَ خطوطِ الرجولة المرسومة فيك؛ حين يبدأ إحساسك بنقصٍ في نفسك، نقصٌ لا يستطيع كل ما اعتدته وما حولك أن يملأه. لأول مرة أشعر أن كتبي التي أحبها، وأصدقائي، وساعاتي التي أقضيها في الرسم دون أن أشعر بما حولي؛ كل ذلك يقف عاجزًا أمام شيء ما لا أتبينه.

غيابُ رانيا ملأني بهذا الشعور؛ كأنما خلا في نفسي ركنٌ واسعٌ، يُفقدها اتزانها، ويجعلها تهتز عند أقل حركة. لم يعُد لأي شيءٍ حولي معانٍ واضحة. بعد سفر رانيا؛ تخلّت كل الأشياء عن معانيها. الألوان والأصوات والحروف التي تملأ كتبي؛ كل ذلك أمسىَ يُفرز صمتًا موحشًا غريبًا، كأني سُجنت وحدي في قاع بئر عميقة.

ولم يكن يخفف عني هذا الشعور الموحش؛ إلا استحضار رانيا.

خيالها الساكن في كل ركنٍ جَلسَتْ فيه. ضحكتها المعلقة بستائر الحجرة التي كنا نجلس فيها. عطرها الذي كانت تستشرف به عالمها الأنثوي الصغير. أشرطة ألعاب الفيديو التي لعبناها سويًا. دفاترها وكتبها التي تركتها ... كل ذلك كان يحفظ لي روحها حية ويجمعها ويستحضرها؛ فأحدثها بكل

أخباري الجديدة. أكتب لها وهي ماثلة أمامي. أحكي لها النكات التي كانت تُضحكها. أشرح لها الدروس الجديدة التي أتعلمها، وأخبرها بما انتابني حين سافَرتْ؛ بحزني ورغبتي في قربها.

وأكتب كل ما مرّ بنا، كلّ حديث تبقى في ذاكرتي. كلّ عمل وكل لقاء، وكلما أكتب؛ أتبيّن أشياء جديدة لم تظهر لي في حينها.

اكتشفت في الكتابة متعة لم أكن أعرفها. لم تحفظ الكتابة ساعاتي الجميلة التي رحلت وحدها؛ بل صنعت لي ساعات جديدة أيضًا. لحظات كثيرة مرت صامتة ولم تُنِر نفسي في حينها، ووجدْتُ نورها وأنا أكتبها. أصبحت رانيا أكثر حضورًا في غيابها. الكتابة هي التي جعلتها بهذا الحضور؛ جعلت كل تفاصيلها أكبر وأكثر صفاءً، حتى أحلامي معها بدت أكثر وضوحًا.

أدركت وأنا أكتب أن رانيا هي حبي الأول؛ أنها هي التي كشفت غطاء قلبي، وأنها الشذى الذي كتب أبجدية العطور في نفسي.

قبل ذلك، لم يكن معنًى واضحٌ للفظ الحبّ قد استقر في نفسي. حتى حين استعملت الكلمة في الدعاء أول مرة؛ لم أكن أُعبّر بها إلا عن إحساس جميل، أجده لقربها؛ وإن لم تبدُ حدود واضحة له.

لم تكن معاني هذه الكلمة -في لغتي- تخرج عن شروح لأبيات الشعر التي ندرسها في المدرسة، وعبارات أحفظها من الأفلام الكثيرة التي أتابعها، معانٍ تجعلني أسأل إن كان لابد للشاعر أن يكون محبًا؟ وهل لا بد للشاعر المحب من حبيبة تهجره؛ ليُصبح شاعرًا؟ ولماذا لا يتزوج الشعراء المحبون في كل

القصص التي نعرفها؟ أم إن الهجران وبُعد الصلة، هما ما يُخَلِّدُ الحب في الكتب والقصص والقصائد؟

كنت أشعر أن أبياتًا أجمل من سواها، وبعض مشاهد الأفلام تظل في نفسي وقتًا أطول من غيرها؛ كأن في هذه الأشياء جمالًا خفيًّا لا أتبينه، جمالًا ينتظرني لأكشفه. شيئًا كامنًا وراء كل كلمة أو نظرة أو حتى لمسة أراها. لكنّ شيئًا من ذلك لم يكن يصل إليَّ كاملًا؛ ربما لنقصٍ في خطوط رجولتي، التي كانت بعدُ باهتة لم تكتمل.

وحين أتمت رانيا بيدها الجميلة هذه الخطوط، وحين أكسب غيابها هذه الخطوط ألوانًا جديدة لم تكن موجودة، وحين ضَمّت أوراقي كل ذلك؛ خرج المعنى الجديد لهذه الكلمة، بخطها وألوان ثيابها وعطرها؛ مطبوعًا في كل قصيدة وحكاية ومشهد.

*****

فرحتُ كثيرًا بالكتابة وتوسعت فيها. صرت أكتب كل شيء يقع حولي؛ شجاراتي مع زملائي، الأحاديث التي أحدّث بها نفسي وأنا أقطع الطريق من المدرسة وإليها، حتى ما كان يدور بذهني وأنا أشاهِدُ فيلمًا أو مسلسلًا جديدًا.

أفكار كثيرة، كانت تمر وتموت دون أن أدركها؛ فصرت أجدها حية، حتى أمسَى اليوم الذي أكتُبُ فيه صفحة، أطول وأكثر امتلاءً من أيام كثيرةٍ تمر صامتة موحشة.

ليس من عبث إذًا أن تكون الكلمة سر الكون الأعظم.

تعلمها آدم؛ ففاق بها الملائكة.

وتعلمتها، فحفظْتُ بها رانيا في نفسي عطرًا مُعتّقًا لا تزيده الأيام إلا رسوخًا وفوحانًا.

(٥)

تمّت سنواتي في الغربة فجأةً، وأصبح عليّ أن أترك المدينة التي وُلِدَتْ في الصحراء، ووُلِدْتُ فيها؛ إلى مدينةٍ أخرى لم تولد في الصحراء، ولم أُولد بها؛ وأترك المدرسة التي زَرَعتْ نفسي، إلى كلية لم أعرف كيف أبذُر بذرتها الأولى.

تركت كل شيء يخصُّني، ورفضت أن أحمل معي أيًّا من أغراضي التي أحبها، كتبي وأشرطتي وشهاداتي وثيابي؛ وحتى صندوق رانيا الصغير تركته هو الآخر.

جمعت كل شيء في حقيبة واحدة كبيرة؛ قصاصات الأوراق التي كنت أكتبها، ومذكراتي ولوحاتي التي صرفت فيها أوقاتًا كثيرة. كنت أشعر أني إذا أخذت معي هذه الأشياء؛ فكأني أنزع نفسي من المكان الذي لا أعرف سواه.

تركت كل شيء؛ ليظل لي في المكان أثرٌ ينادي عليّ إذا ابتعدت. آثارُنا هي التي تُنادينا حين نبتعد، هي التي تسأل عنّا، لتخبرنا أن شيئًا جميلًا لنا هناك؛ تقول: «كن خليقًا به، وعُد سريعًا لأجله».

رغم أن إحساس الغربة لم يُفارقني طيلة وجودي هنا، إلّا أنه تحوّل الآن إلى إحساس غريب، إحساس بانتماءٍ ما؛ انتماء إلى مكان لا يشبهني في شيء.

يعتبر أبي سفري هذا علامة الأمل له بالعودة إلى مدينته. يخبر أمي أن الرحلة التي بدأها قد انتهت، وأن أيام الغربة التي أطعمها عمره، لم يعد فيها الكثير. يفرح أن بعضه يعود إلى حيثُ خرج هو، وفي عودة الجزء عودة الكل.

كنت أرى في تمام رحلته اقتلاعًا لجذوري الصغيرة، التي لم تكد تتحسس الأرض حولها. وفي عودته إلى أرضه؛ غرسًا لجذوري في أرضٍ جديدة لا تعرفها.

لم نختر نحن أيّ أرضٍ ننبت فيها. ربما سهل على البذرة أن تَنبُتْ في أى مكانٍ أول مرة؛ تأخذ شكله وتتكيف عليه. لكن حين تجرِّب انتزاعها لتغرسها في مكان جديد، قد تخونك ولا تثبت، أو تضعف وتموت.

حين تتذوق طعامًا جديدًا لأول مرة؛ فإن هذا المذاق –حتى ولو لم يكن هو المذاق الصحيح– سيظل في نفسك المذاق الذي تقيس عليه بعد ذلك. فإذا صادفك نفس الجنس، بصنعة أكثر إتقانًا وجودة؛ خلاف الهيئة التي تعلّمها لسانك أول مرة؛ فإنك لا بدّ ستصفه بالسوء.

أسأل أمي كيف استطاعت تحمُّل كل هذا القدر من الاختلاف والغرابة، حين جاءت هنا أول مرة؟

تجيبني أن في الأيام سرًا عظيمًا؛ هو أنها تمر. ومهما كان ما تحمله؛ فإن مرورها يجعلك تنتظر دومًا دون قنوط. وتجيبني أن في النفس سرًا آخر عظيمًا؛ هو أنها تعتاد. وأن الكلمة من نفسك حين لا تجد حقيقة تجسِّدُها؛ فإنها تبحث عن هذه الحقيقة فيما تتوهمه مما حولها من أشياء.

تواصِل: «فحين فقدت محبة أبي وأمي وإخوتي؛ جعلت ذلك كله فيك ثم في إخوتك. وحين فقدت صندوق ذكرياتي؛ بدأتُ تقويمي من جديد، وجعلت اليوم الذي يمُرُّ صندوقًا وحده، حتى لو كانت أحداثه قليلة. لا يمكننا أن نحيا دون ذكريات، لولا التاريخ لما كان للإنسانية الحياة التي تراها».

تصر أمي على صحبتي، إذ لا ترغب في أن أسافر وحدي.

تقول لي: «لا أعلم ماذا سأفعل بعد سفرك؛ إذ أفقد صندوقي للمرة الثانية. لقد جعلتُ كل معاني كلماتي الناقصة فيك، وحين تغيب أنت الآن؛ تغيب لغتي كلها. قد يسهل على الأم غياب ولدها، مهما كانت محبتها له؛ حين لا يحمل من قاموسها إلا أنه ولدها. أما حين يحمل أكثر من ذلك، حين يكون اختصارًا لحياتها؛ فغيابه غيابٌ للحياة كلها».

تتم المرأة حين تصبح أمًّا، هذا صحيح؛ لكنها كانت شيئًا قبل هذا التمام، ولو ناقصًا. ويمكنها أن تبقى دون هذا التمام شيئًا ناقصًا؛ غير أنه يستحيل عليها ألا تكون شيئًا مطلقًا.

*****

يمكنني أن أتخيل كيف مرت هذه الأيام على أبي؛ لأنه كان مشغولًا دائمًا. لعله وجد في هذا الانشغال الدائم، ما يصرفه عن التفكير في أمر الغربة التي يعيشها. كان كلاهما قد امتلأت نفسه بكلماتٍ لا تُستخدَم بمعانيها التي تعلّمها.

كيف كان أبي يستخدم كلمات مثل أخي وبيتي ومدرستي، حين لم يبق من تلك الأشياء إلا صور باهتة في نفسه؟ كيف سأستخدم أنا أيضًا هذه الكلمات حين لا يبقى منها إلا مثل تلك الصور؟

أتذكر حزن أمي حين توفي جدي، وأسأل نفسي: لماذا حزِنَت كل هذا الحزن؟ رغم أن وفاته لم تُسبِّب لها بُعدًا جديدًا عنه، فهي في الحقيقة تحيا بعيدة عنه. قد تمر سنتان وأكثر دون أن تراه. هو ذاته الغياب، والذين نترُكُهم بالسفر كالذين نتركهم بالموت؛ يحزنون وتستمر حياتهم. يعتادون أشخاصًا آخرين، ليحزنوا مُجددًا حين يرحلون.

في دفتري الذي يكتُبُ لي فيه زملائي؛ أجد عبارة تكررت كثيرًا مع الجميع، وإن اختلفت الطريقة التي عبّروا بها: «آمُل ألا تنساني سريعًا».

في الحقيقة، لم أكن أستطيع الإجابة بأنني سأفعل. لا يمكنني أن أعد أحدًا بألا أنساه، أو بألا أكُف عن الكتابة له، أو التفكير فيه. الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله بيقين؛ هو أن أقسم لأي أحدٍ عرفته أنه أبقى في نفسي أثرًا، وإن يغب ذِكرًا؛ يكفيه أن تخبره الدنيا أن كلمة ما لم أكن لأقولها، لولا هذا الأثر الذي بقي في نفسي منه. قد يغيب الأشخاص عنا، لكن آثارهم باقية دومًا، تحكي حكايتهم في سلوكنا. وتكمن براعتنا في تحويل كل هذه الآثار إلى عملٍ واحدٍ مُتجانسٍ حي؛ كالحجارة التي تقوم بها الجدران، منها الكبير والصغير والحاد والمكسور، ثم هي في النهاية جدارٌ واحد قوي.


خبر

(١)

حين تولد غريبًا في بلد؛ فإن غُربتك تصحبك أينما رحلت. لا يمحوها عنك العودة حيثُ يدَّعون لك وطنًا، ولا البقاء حيثُ تدَّعي عبثًا وطنًا ليس لك.

لم يكن واضحًا لي إلى أين سأذهب. يقول أبي إنها مدينتنا. هذه الكلمة التي لم أستطع تصوّر معنى لها، خلال كل السنوات التي مرت؛ في إدراكي. ضمير النسب فيها كان دومًا موطن ضبابٍ في نفسي. في دروس الإنشاء؛ أكتب أن «مدينتنا» التي نَمَتْ من العدم في الصحراء والتي كانت فصارت. وفي دروس الجغرافيا أجيب عن امتياز مدينتنا بموقعها ومواردها وأهميتها الدينية والثقافية. وفي وثيقة الهُويّة التي يحملها أبي؛ أجد أننا عابرون على «مدينتنا»، وأن الضمير فيها لا يعود علينا.

وإذا سألت أبي عن «مدينتنا»؛ ما هي؟ يجيب: «إنها المدينة التي وُلِدَ فيها أبوك».

- لأي شيءٍ تُصبح المدينة التي ولد فيها أبي؛ مدينتي؟
- لأن فيها جدك.
- لكني أنا هنا.

وإذا سألته لِمَ ترك «مدينتنا»؟ يجيبني أنه تركها لأجلنا.
- نحن الذين لا نعرفها؟

*****

كان لزامًا أن تكون لي مدينة أدعوها «مدينتنا»؛ أتكلم عنها بين زملائي، أحكي لهم عنها، أهرب إلى شوارعها، أبحث فيها عن شيءٍ ينقُصُني، عن شيءٍ للتَّمني. ورغم أن صفة الوطن لم يكن لها موقع في نفسي حينها، إلا أن الأمان الذي كنت أستشعره وأنا أحكي عن «مدينتنا»؛ يشبه الأمان الذي يملأ طفلًا يُمسِكُ بيد أخيه الكبير، وهو يعبر طريقًا لا يعرفه.

صنعنا نحن الصغار، المشتركون في ذات الصفة من ضياع الضمير في «مدينتنا»؛ وطنًا. خيالًا من قُصاصات الحكايات التي نحملها من إجازاتنا القصيرة. أوطاننا التي صنعناها كانت جميلةً خضراء، ليست كتلك الصحراء التي صرنا فيها. خلعنا عليها كل صفة جميلة؛ الناس في بلادي أهدأ، والجو في بلادي ألطف، والفتيات في بلادي أجمل. ونمَتْ لنا لهجة واحدة، هي مزيج من كل لهجاتنا؛ كانت كفيلة لتصنع الفارق الذي يحفظنا من الذوبان فيمن حولنا. نفقد هذه اللهجة في كل إجازة صيف، إذا افترقنا؛ وسرعان ما تعود لهجتنا الوليدة حين نعود مُحمَّلين بصور جديدة، تزيد على خيال أوطاننا خيالاتٍ جديدة.

راجعت كل الصور التي رسمتها لهذا الوطن، حين بدت عودتي إليه قريبة. فرحتي بانتهاء هذه المرحلة الدراسية، عكّرها الخوف من اختبار تلك الصور.

أن تختبر خيالًا صنعته على غير بيّنة، كأن تقفز طائرًا من نافذة، لتجرب الطيران؛ فتسقط. تبدو الخيالات منطقية هادئة، لكنها حين تخضع لاختبارات الحياة؛ تتجرَّد من منطقها هذا، ويحيق بها منطق الوجود الحقيقي؛ فتفشل أمامه.

*****

بدا كل شيء واسعًا، كثيابٍ فضفاضة تغمُرني فجأة. كأن جدران الحياة التي تسترُني تتباعَد، وينقطع ما يربطني بها؛ لتتركني وحيدًا أرقُبُ ابتعادها.

ومع ابتعادها، يُولد خوفٌ جديدٌ في نفسي؛ خوف الذي ضلّ طريقه في فضاءٍ واسعٍ، بعيدًا عن كل معنى يعرفه للحياة.

حتى لغتي فارقتني. كنت أعجز عن صياغة أي معنى أريده. حين تخونك لغتك؛ يخونك عقلك. إننا لا نتعامل مع عقولنا إلا بهذه اللغة التي تحملنا. كان ارتباط لغتي بالمكان أكبر من ارتباطها بي. لم تتحمل انتزاعها فجأة؛ فتهاوت لأبقى وحيدًا.

أدرك الآن، بعد هذه السنين؛ أن الوِحدة الحقيقية هي حين تخونك هذه اللغة، حين تقف عاجزًا عن إيجاد لفظٍ ما؛ يشرح لك شيئًا لا تفهمه. إنك حين تعجز عن التعبير عن دفء الجو، أو تلوّن الشفق؛ فإنك تقتُلُ الحياة في هذا الدفء وفي ألوان السماء. وحين تعجز عن التعبير لنفسك عما يدور بخاطرك؛ فإنك تُعلِنُ توقفك عن الحياة.

إن حبًّا لا تستطيع الكلمات التعبير عنه؛ حبٌّ خديجٌ ناقص لا يتحمل البقاء.

جربت الحياة منفردًا دون أصدقاء إلا اللغة، ولم أفشل. لم أشعر بالفراغ، وكنت قادرًا على بناء حياةٍ، ولو ناقصة. لكن حين تركَتْني لغتي؛ أمسيتُ أسيرُ كالأجرام الهائمة بلا مجرات؛ كل شيءٍ حولها هو قوة تدفعها، حتى تتحطم أو تغرق في بحار الفضاء السوداء.

إننا نتزوج بكلمة، ونؤمن بكلمة. وحين نُذنِب، مهما أذنبنا؛ فإن الاستغفار لم يزل كلمة.
بغير الكلمة لم تكن الحياة لتخلق.
وبغياب الكلمة؛ لا يمكن لها أن تستمر.

(٢)

لم تكن المنصورة مدينة مخيفة حين رأيتها المرة الأولى، بل على العكس؛ كانت حنونًا جدًّا. نهرها الذي يقطعها من أولها لآخرها هو أول يد مسحت عني خوفي.كانت كالذي يقول لي إن مدينة تمسِكُ يدُها بيدِ نهرٍ كبير، لا يمكن أن تضيع فيها، وأنت الذي عاينت المدن التي تتخبأ من الصحراء في ظلال الجبال.

الأنهار تصنع المدن؛ هي التي تختار أماكنها وتحكُم مبانيها، وتقسّم شوارعها، وتحدد حِرَف سكانها ووظائفهم. والمنصورة من تلك المدن التي حكمها النهر الذي يمسكها؛ شوارعها توازيه أو تنتهي إليه، بناياتها كلها تتطاول لتراه، شرفاتها الكبيرة ونوافذها الواسعة وواجهاتها الفخمة صُنعت لتليق بالنهر العظيم، الذي وهبها الحياة.

مُلّاك الأراضي التي تقع في زمامها، ومديرو أعمالهم؛ كانوا كبار سكانها. وأثرياء العاصمة الذين رأوا فيها جزيرة وردٍ بعيدة عن صخب الحياة، ثم موظفو الدولة وجاليات فرنسية ويونانية. كان ذلك قبل أن تختلط الحياة وتقسَّم الأرض وتضيع الفوارق الطبيعية بين الحياة، ليشغل مكانها فوارق جديدة أكثر جفاءً وقسوة.

هذه القسوة هي التي صنعت البقية الباقية من تلك المدينة؛ أحياؤها الجديدة البعيدة عن النهر، مبانيها الطويلة الضيقة كشواهد القبور، نوافذها الصغيرة وشرفاتها التي تحوّلت إلى امتدادٍ لغرفٍ ضيقة، سكانها الذين هم خليط من الموظفين، والعائدين بثرواتٍ واهية من الصحراء لم تسعفهم ليتموا كساء جدرانها أو طلاء بواباتها ونوافذها؛ فجاءت مسوخ بيوتَ، تعكس صورتُها عبءَ السنوات التي بنتها.

*****

نمت علاقتي بالمدينة سريعًا. البياض الذي يلفها كل صباح يجعلني أشعر أن بابًا من الجنة مفتوح على هذه المدينة. الشوارع الخالية دائمًا في ذلك الوقت، تُشعِرُني أنها مدينة لم تُبنَ إلا ليسكنها الجمال. الحدائق المحيطة بالقصور الباقية في حي توريل القديم، حيث أسكن؛ بشوارعه المتوازية وصمته الملكي إلا من غناء الطيور المتعلقة في أشجاره. كأنها حدائق حُبٍّ أتخيلها وقد جمعت كل زوجين تحابًا في هذه المدينة الجميلة.

أسير مع نهرها إلى الجسر الذي يعبرُ عليه القطار. أجتازه إلى منتصفه، وأقف أرقُبها وهي تصحو.

مدرسة البنات الثانوية التي تواجه النهر، بنوافذها العالية المتجاورة وأصوات الفتيات؛ تهبها الحياة بعد صمت. الطريق العائد إلى مبنى المحافظة والسيارات تكثر فيه. الضباب وهو يرتفع بعد أن غسلها ليُسلِمها إلى يومها الجديد.

تزدحم المدينة حين ينتصف النهار، ليُشاركني فيها أناسٌ هم أول إحساسي بالغربة معها.

سيارات النقل العام -المكتظة دائمًا- وأصوات «تبّاعيها» وهم ينادون على الركاب القاصدين كل أحياء المنصورة. سيارات الأجرة التي يختار سائقوها زبائنهم، ويفرون سريعًا إن كان المقصد مكانًا بعيدًا، أو جهة لا يحبون السير فيها. محلات الفول التي تمتلئ بالواقفين يتأملون صورهم المنعكسة على المرايا، التي تُغطي الجدران؛ وهم يأكلون. عصّارات القصب وعربات الفاكهة والخضار المنتشرة في مداخل الأسواق. الموظفات البدينات، اللائي تفيض بهن الشوارع وقت الظهر؛ يهرعن إلى أي سيارة أجرة تقف.

يظهر وجه آخر للمنصورة إذا نزل إليها الناس؛ يقتحمون صداقتي الجديدة لها، ويفسدون الصور التي أرسمها معها. لا يشبهني أحد فيمن حولي، حتى الهموم التي يتحدثون فيها كل يوم؛ لم تكن تترك في نفسي أثرًا. كانت لي همومي الخاصة التي لا يُدركها أحد ممن حولي أيضًا، وإن جربتُ وتحدثت فيها؛ أجد ابتسامات صامتة تعلو وجوه الذين أحكي لهم.

قال لي أحد أقاربي مرة: «إن رؤيتك ستتغير حينما تتغير عينك التي ترى بها. إن عين السائح التي تحملها سرعان ما ترمدها الحياة؛ لترى الدنيا كما يراها الناس هنا».

حديثه أخبرني أن غربتي، التي أحملها في حقيبتي؛ لن تتركني سريعًا. وأنه لا يكفي أن يكون لك في مدينةٍ ما صفٌّ طويلٌ من أقارب تربطهم بك صلة دمّ، حتى يُكتب لك الانتماء إليها. وأنه مهما اتصلت صداقتك بها، فإن المدن

لا تقبل الغرباء بسهولة. لا يمكن لمدينة أن تقبلك إلا إن صنعَتْك هي؛ إن أعملتْ يدها فيك. إن أخذتْ منك، أو إن أعطيتها أنت -عن رضا- شيئًا كبيرًا؛ كحياتك مثلًا.

كنت أتخير من المطاعمِ تلك التي أجد لها أشباهًا في المدينة البعيدة. كانت هي وحدها الأماكن التي أشعر فيها براحة كبيرة. نفس الأسماء والألوان، وحتى الروائح التي تملؤها تشبه الروائح التي كانت هناك.

بدأت لغتي مولدها الجديد هناك.

في تلك المطاعم؛ حَبَت تتعرف أسماء الأشياء حولها.

نهر..

مطر..

مدينة..

(٣)

بعض الأصوات تمر علينا كسحابة ظلٍ؛ لا تترك أثرًا، وبعضها كأنه سحابة مطر؛ تجيء بالبُشرى وترحل بالخير. بعضها يُضيءُ كفجرٍ وليدٍ، أو يضيءُ كشمسٍ ساطعةٍ. بعضها يمد يدًا تدعوك لترقص أو تُهدهِدُك فتنام.

كأنها تصنع الأصوات حياتنا. تبني هياكلها، وتشد أجزاءها بعضًا إلى بعض.وعلى قدر تجانُس هذه الأصوات؛ يتجانَس الهيكل ويتزن البناء.

كان صوتها من تلك الأصوات التي تصنع الأيام المتجانسة. الصوت الذي يُرَكِّب لك أجزاءك المتفرقة؛ فتصير كأنها صنعة السماء لا عوج فيها ولا شذوذ. ليس هدوؤه والرنة العميقة فيه هي ما لفت أذني إليه، ولا الأنوثة الرقيقة التي تتحدَّرُ منه في عفويةٍ صافيةٍ، كأنها تقبل الأذن حين تطرقها؛ إنما شيء آخر أقرب من ذلك كله.

لم يكن هذا الصوت يتكلم لهجة تُشِبهُ لهجة الناس هنا. التقطْتُه رغم ازدحام المدرج بالأصوات الكثيرة في الدقائق التي تسبق دخول المحاضر. لهجة أردنية خالصة. لا تعرف أي شيءٍ وَلَّد تلك اللهجة المركبة، لا هي بالقاسية قسوة لهجة العراق، ولا باللينة لين لهجة سوريا؛ كأنها نسيم روضة ونسيم جبل.

كان الصوت خلفي بدرجتين. انفصلت أذني عن كل ما حولي من أصوات، وبقي صوتها وحده صافيًا، وهي تحدّث زميلة إلى جوارها؛ تسألها من أين هي.

«أنا أردنية، أردنية فلسطينية؛ أبي من نابلس وأمي من عمّان. ولدتُ في الرياض، وبقيت هناك حتى أتممت المدرسة، وجئت أدرس هنا».

ما شعورك حين تُدْعَى لعُرْسٍ لا تعرف فيه أحدًا، فتظل مُتشاغِلًا بساعتك وهاتفك عمن حولك، حتى ترى شخصًا تظن أنك تعرفه؛ فتخف إليه ويتسع حولك الكون الذي كان من لحظة كأنه صندوق ميت. إنه كشعوري حين مسّني، من ضجيج المدرج؛ هذا الصوت.

كان اليوم الذي يَمُرُّ علي يزيد عُزلتي جدارًا يحجزني أكثر عما حولي.

ولم أكن قادرًا على تخطي هذه الجدران وحدي؛ جربت ولم أُفلح. لعلي كنت أرفض ذلك في داخلي. لكنّ يدًا واحدة كانت كافية لتجعلني أجرّب ذلك وأنا أشعر بالأمان. ربما سهُل علينا تعلم أشياء كثيرة وحدنا دون مساعدة، لكن الأبجديات لا يُمكننا تعلمها منفردين؛ لأجل ذلك فرحت حين وجدت «مَيس».

كانت الشريك الذي يمكنني معه فتح فجوة في هذه الجدران. اتصلت صداقتنا أسرع مما قدّرت. كان أكبر شبهٍ جمعنا هو غُربتنا عما حولنا. لا يهم أن تكتسب هوية المكان الذي أنت فيه، لتزول الغربة عنك. عرفت منها أن أباها اختار لها مصر؛ لأنه درس هنا منذ عشرين سنة، وأنه يعرف شوارع القاهرة كلها، وأنها زارت مصر معه أكثر من مرة وهي صغيرة.

معرفتي لميس كانت الحدث الأكبر الذي غيّر علاقتي بالمدينة من حولي. أصحبُها في الشوارع التي تعرفت عليها حديثًا، أحدثها عنها بما أعرفه، نتردد على المطاعم التي أحبها. صارت ترى الأشياء كما أراها؛ تعليقاتها على الأشياء من حولنا كأنها تقرؤها من عقلي.

في قوانين الطبيعة حيثما وجدت شيئًا؛ فثمّ شبيهه قريبًا منه. حين ترى نملة فهناك نمل، وحين ترى عصفورًا فقريبًا منه عصافير كثيرة. نقطة الغبار لا تقف وحدها على الجدار؛ إذ سريعًا ما يتجمّع حولها غبار كثير. ومهما اختلفت الأشياء المتشابهة فيما بينها، مهما تشاجر الحمام؛ فإنه لا يُساكِنُ النسور أبدًا. هذه الجاذبية يقوم قانونها على الدم أول ما يقوم، ثم يحل بعد ذلك في العقل؛ فالأجناس المتشابهة تميل إلى الحياة معًا، والذين يدينون بدين واحد أو يمتهنون مهنة واحدة يكونون دائمًا معًا.

تتغير الأشياء كثيرًا، حين يراها معنا سوانا.

يتغيّر العالم كله حين يُشاركنا أحد الوقوف على ضفته. حين يشاركنا أحد إمساك الفرشاة والضرب بها على سمائه.

تتغيّر الألحان حين تعزفها يدان على لوحة واحدة.

لتولد منها مفردات جديدة.
أُنسٌ..
لحنٌ..
أمان..

(٤)

كانت تلك الضجة كافية، لنقوم جميعًا إلى نافذة المدرج.

كأنها انشقت الأرض فجأة عن كل هؤلاء. آلاف الطلبة يتجمعون في صفوف؛ يرفعون لافتات لم تكن واضحة لي وأنا في مكاني.

أثارَ صوتهم رعبًا كبيرًا في نفسي. لا أدري لماذا شعرت بالخوف الشديد، حين ارتفع الصوت فجأة بالهتاف. كان الصوت قويًّا هادرًا كأنه أمواج غاضبة.

منعني الخوف في البداية من تبيُّن ما يقولون، لكن اعتياد الصوت خفف ذلك، فبدت هتافاتهم واضحة:

«يا فلسطين يا فلسطين.. مش ساكتين مش ساكتين..

يا فلسطين يا حزينة.. بعدك مكة والمدينة..

في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء، لا لِدُنْيا قد عملنا نحن للدين الفداء».

كانت تلك أول مظاهرة أراها عيانًا في حياتي. لم أكن أتخيل ذات يوم أن يمر أمامي آلافُ المتظاهرين. هناك في تلك المدينة الصامتة أبدًا لم نكن نعرف مثل هذه الأمور؛ كان كل شيء مُعلبًا حتى الغضب.

اجتذبت المظاهرة الكثيرين من الواقفين على الجانبين. كانت تكبُر كلما ابتعدَتْ عنا، فيظل صوت هتافاتها قويًّا واضحًا. لم أكن متابعًا للأخبار، ولم أعرف أي حدثٍ جديد استدعى هذه المظاهرة. في فلسطين يهود منذ سنوات. بل لم تُضَف فلسطين في قاموس لغتي، إلا ومعها مرادفاتها من المذابح والحق الضائع واللاجئين؛ كأن تمام معنى فلسطين هو اجتماع هذه الألفاظ كلها.

سألت أحد زملائي: «ما هذا؟».
قال: «إنها مظاهرة لطلاب التيار الإسلامي».
سألته إن كان قد حدث شيء جديد يستحق ذلك.
فقال إنه لا يعرف، لكن هذا يتكرر كثيرًا، ونصحني ألا ألتفت إليهم، وأن أحرص على الابتعاد عنهم. بل وحذرني من صلاة الظهر بمسجد الكلية؛ لأنه المكان الذي يكثُرون فيه. وأخذ يحكي عن أقارب له، وأصدقاء سبق واقتربوا منهم؛ فضاع مستقبلهم جميعًا كما قال.

لم أسأله من هم هؤلاء الطلبة؛ لأن الخوف المبهم الذي ملأني حين بدأت المظاهرة، كان قد عاد أكبر مما كان. ذات الصورة التي ما فتئت تُلح عليّ؛ الدنيا الصغيرة التي أتكِئ على جدرانها، ثم تبتعد الجدران فجأة، وأبقى وحدي بغير رباط.

أسئلة كثيرة تركتها لي هذه المظاهرة.
لماذا هي؟
لماذا خفت منها؟
ولماذا لم أشعر بشيء وهم يهتفون بهذه الحُرقة؟

تكررت تلك المظاهرات بعد ذلك مرات كثيرة. كنت قريبًا منها؛ أتابعُها بشغفٍ وانبهار. نما في نفسي إحساسٌ قويٌّ بالجمال. اللحظات التي تسبق تكوّن هذه المظاهرات، تبدو كاللحظات التي كنت أتخيّلها لميلاد النجوم الكبيرة؛ العبثية والهرج اللذان يتحولان في لحظاتٍ إلى كتلةٍ واحدةٍ منتظمة. أحبّ مراقبتها من الطوابق العليا والطرق تقذف بهم إلى الساحة الكبيرة. الطرق التي تنتهي بمساجد الكليات كانت أكثر انتظامًا وهي تُخرج طلابها. يبدأ الهتاف قبل أن يبدأ المسير، يخرج الصوت قويًا عميقًا فيتبعه صوت ممتلئ هادر. لو كان لميلاد النجوم صوتٌ مسموع، لكان أشبه بذلك الصوت. لم تعد رهبتي منه كما كانت. أصبحت أرهِفُ سمعي كثيرًا له. كان صوتهم هو ما يتم لي الصورة الجميلة التي وجدتها.

لم أفكر مرة في تجربة ذلك معهم. تتم متعتي بالمراقبة وحدها. يكفي أن أسمع الجلبة التي تعقب صلاة الظهر في المسجد، حتى أعرف أن شيئًا ما سيتم؛ فأصعد سريعًا وأراقبها.

مهما طالت مدة المظاهرة، فلم أكن أملّ الوقوف والمتابعة. كان كل شيء فيها منظمًا بعناية، حتى ليمكنني عدهم مهما كانوا كثيرين. الطلاب يشغلون المساحة الأمامية، ثم الطالبات بعد ذلك، وعلى جانبي النهر لافتاتٌ كبيرةٌ تمنع المظاهرة من الانفراط على جانبي الطريق. حتى مكبرات الصوت كانت توزّع بانتظام بطول المظاهرة، يتناوب على حملها طالبان أو أكثر. ثم هناك طلبة يتحركون بحرية بين الناس يقوّمون أي اعوجاج في الصفوف كأنها صفوف الصلاة، وطلبة آخرون يحملون صناديق يمرون بين الطلبة يجمعون

فيها التبرعات. وتنتهي المظاهرة بمؤتمر كبير يتكلم فيه خطباء من الطلبة أو من المدرسين أو أحد الشخصيات الكبيرة التي يتصلون بها - من حماس مثلًا- حسب الحاجة التي من أجلها انطلقت المظاهرة.

كانت التعليقات التي أسمعها من الطلبة أو من هيئة التدريس كثيرة متنوعة؛ فبين أدعية صامتة بالنصر، وعبارات استنكار، أو ادعاءات بعبثية العمل، والانشغال به عن أشياء أكثر عملية وأهمية.

يقول أستاذ، حين وصل إلينا صوت مظاهرة ونحن في محاضرته: «إن الذين يحركون هؤلاء الطلبة أولى بهم أن يدفعوهم دفعًا للدراسة والتعلّم، بدلًا من إهدار أوقاتهم في أعمال تنتهي كما بدأت دون نتيجة، إلا الأذى المترتب عليهم منها». يَرَى أن العلم هو الصوت الوحيد الذي يسمعه كل العالم؛ هو الذي يمنح الضعفاء قوة يمكن أن تدافع عنهم، وما سوى ذلك يُعدُّ صراخا عبثيًا في البرية.

يسألنا آخر: «لماذا لا تشاركون زملاءكم ما يفعلون؟ حتى لو كان العقل يقتضي الانصراف عنها؛ فالشباب لا يتحركون إلا عن عاطفة وحماس، لا عن عقل موزون. وانصرافكم لا يعني تحلِّيكم بالعقل قدر ما يعني خلوكم من العاطفة والحماسة، وكلاهما علامة خطرٍ لا علامة سلامة».

(٥)

كأن نفسًا صافية غسلت وجهها؛ فأضاء، فاستشرفته الملائكة تأنس به، فشاع حوله أُنس الضياء وأنس الملائكة وأنس وجهها الجميل.

يُرى الوجه الجميل أول مرةٍ بنور الطبيعة حوله، حتى إذا انعكس نوره على قلب رجل؛ ارتد إليه، فزاد في إضاءته، فيراه بنور الطبيعة وبنور الوجه المنعكس.وإذا هو يكبر ويكبر وإذا هو جمال حي.

ومن أسرار الوجه الجميل، أن حسنه باقٍ في القلب الذي أضاءه ما بقي هذا القلب منيرًا به. فإذا انطفأ القلب؛ لم يعُد نور الطبيعة قادرًا على الحفاظ على صورة الوجه الجميل، ولو أضاءته ألف شمس لألف سنة كاملة.

حين لا تسعفك مفردات اللغة التي تعلمتها في وصف شيء جميل تراه؛ يحتال عقلك لاختيار أقرب الألفاظ إليك، فهو يرى أين وقع الشيء الذي رأيته في نفسك، ثم يبحث أي الألفاظ تستخدمها في وصف ما ينبه هذا الجزء في العادة. وعلى قدر براعته في الصياغة والتركيب؛ تكون الصور اللغوية التي يُنشئها أقرب لوصف هذا الجمال.

قد ترى الوجه الجميل، ولا تصفه إلا بمفردات الضياء وحدها، فلو خلق النور إنسانة لما كانت إلا هي.

وقد ترى الوجه الجميل؛ فلا تصفه إلا بمفردات الألحان وحدها، فهي النغمة الهادئة في أول اللحن تجذبك برقة إليه.

وقد ترى الوجه الجميل؛ فلا تصفه إلا بمفردات الطبيعة وحدها، فهي الزهرة وهي العطر وهي الشمس والقمر.

وقد ترى الوجه الجميل؛ فتشعُر أنه أكبر مما سبق، فتصفه بصفات الجمال الذي لا تدركه، فهي الجنة الكاملة.

وقد ترى الوجه الجميل؛ فلا تصفه إلا بجملةٍ واحدةٍ: «وددت لو أنكِ أنتِ أنا».

في كل ما سبق، أنت تصف الجمال بموقعه في عقلك، وفي العبارة الأخيرة وحدها؛ أنت تصفه بموقعه من نفسك.

حين يمسُّ الجمال نفسك، وترتعش به؛ تتمنى أن تذوب فيه.
أن تصبح جزءًا منه.
وأن تكتمل به.
«وددت لو أنك أنتِ أنا».

كانت هذه هي العبارة التي وجدتها في نفسي، حين صافحت وجه ليلى؛ مُستطيلًا صافيًا كلون الشهد إذا انعكست عليه الشمس. عيناها بنيتان فيهما

سكينة ودفء، وأنفها مستقيمٌ متناسِب، كأنه الجوهرة الفريدة في التاج الملكي؛ وشعرها بُني إلى احمرار يتناثر على جبينها العريض كأنه صفحة القمر.

إذا كانت بعض النساء يوقظن في الرجل رجولة مجردة، فإن البعض الآخر ينساب كالعطر الناعم الذي يُرغمك أن تملأ به صدرك ببطء؛ فتنتشر في كل ركن من نفسك كما ينتشر العطر، وتتمنى لو طال نَفَسُك أو اتسع صدرك؛ حتى يسع أكثر. وقد كانت ليلى من ذلك النوع الهادئ، الذي تعرف معه معنى تذوق السُكَّر حلوًا حين يذوب دون أن تتعجله، فتكسره.

لقاؤنا الأول كان عابرًا. تخطئ العين الجمال الصامت في أول رؤية له. تتجاوزه ما لم يلفتها إليه شيء، لكنّها حين تُدرِكه؛ تقف طويلًا أمامه لا تفارقه. تبحث فيه عن سرّه الصامت. وهو ما حدث ساعة التقينا في غرفة الانتظار قبل دخولنا إحدى لجان امتحان شفهيّ، وعرفني عليها صديق.

لم يزد تعريفه عن هذه العبارة المقتضبة: «ليلى؛ زميلتنا. كانت تدرس معي في نفس مجموعة الدروس التي كنت أذهب إليها».

بعد هذا التعريف؛ صرت أرى ليلى كثيرًا. لا يكفي وجود إنسان قريبًا منك لتراه. كانت ليلى معي في نفس المجموعة؛ إذ إن اسمها واسمي تقترب أحرفهما الأولى، ومع ذلك لم أرها إلا ذلك اليوم.

أحيّيها إذ التقينا على باب مدرج أو معمل أو مكتبة، نتحدث أحاديث صغيرة لا معالم فيها؛ أحاديث الجو والدراسة والامتحانات، ولا شيء أكثر.

كانت تصحب معها كتابًا على الدوام، تتصفحه ما دامت غير مشغولة بشؤون الدراسة. وحين تشاركنا إبداء الرأي في أمرٍ مطروح، فإن آراءها، حتى التي تخالف الرأي الراجح بيننا؛ تخرج مرتبة موزونة.

استطعتُ أن أميّز في نفسي اهتمامًا خاصًّا بما تفعله ليلى. متى تصل إلى المحاضرة، ومَن يصحبها من زميلاتها. أين تقف، وفي أي المواضيع تحب أن تتحدث. أي عطرٍ وأي نوعٍ من الكتب تصحبه أكثر.

تقول إن أحدًا من الذين يكتبون القصة القصيرة لا يعجبها، كما يُعجبها يوسف إدريس. وإن أحدًا لم يستطع اختصار المشاعر الإنسانية في جملٍ رياضية، كما فعل توفيق الحكيم.

في مسرحية «سليمان الحكيم»؛ لم يستطع الملك سليمان، وهو الرجل الذي لا تخطئه عينٌ مُلكًا ونبوة؛ أن يلفت انتباه امرأة عاشقة.

إنّنا قد نستطيع إبهار العيون وحيازة إعجاب النفوس، لكن من العسير أن نملأ القلوب التي شغلت بغيرنا.

(٦)

من عند مديرية الأمن القديمة؛ يبدأ عادةً سيري مع ميس في المدينة التي لا يعرفها أحد منّا. تسكُن هي خلفها، وأقيم أنا في بيتنا في حي توريل القديم.

كانت المديرية قصرًا لمحمد الشناوي، قبل أن يؤول إلى مديرية الأمن؛ يشغل ناصية الطريق بقبتيه اللتين تظهران بين أشجاره الكثيفة، كأنهما معلقتان عليها. وحين تكون قريبًا إلى سوره؛ يظهر لك ركنه وقد تحوّل إلى موقف لسيارات الشرطة، وعلى باب صغير في جانبه لافتة مكافحة المخدرات، كأنه لم يكن يومًا قصرًا؛ يختلط فيه الضوء والعزف وبهجة الدنيا.

نسير متجاوزين مبنى المحافظة إلى أوّل المختلط، الذي يمتد حتى مزلقان القطار. تجتمع في الشارع بنايات قديمة تجعله أشبه بشوارع المدن القديمة في المسلسلات.

تبدأ بالمدرسة المسيحية في أوله، بجدرانها المصمتة، ونوافذها التي لا تفتح كأنه لم يعد أحد يرتادها، ومبنى هيئة المساحة، ثم عمارة الشناوي الكبيرة، ومحكمة الاستئناف التي كانت المحكمة المختلطة، ومدرسة البنات الثانوية

ذات النوافذ الكثيرة العالية. ورغم أن الفترة الزمنية التي شهدت ميلاد هذه الأبنية متقاربة، إلّا أنها جميعها تختلف في طُرزها المعمارية.

تقول ميس إن المباني القديمة حولنا لا يجمعها طراز معماري واحد؛ إنجليزية وفرنسية ويونانية. حتى الأبنية تبدو غريبة هنا، ليست ثقافة واحدة هي التي بنت هذه المدينة.

قالت إنه لا يمكننا أن نحب هذه الأشياء، ولو كانت جميلة؛ لأنها علامة أن هذه الأرض كان يملكها أناس ليسوا من أهلها. حتى المباني العظيمة التي بنوها هنا لم تكن لأهلها. لم يكن الجسر المعدني الذي يربط المنصورة بطلخا، وتحمل لوحته تاريخًا من أربعينات القرن؛ أو محطة القطار الصغيرة، التي تحمل تاريخًا من ثلاثيناته؛ حبًّا لأهل المدينة، إنما كان خدمة لمصالحهم، ولو أمكنهم أن يسجنوا الفلاحين في قُراهم لفعلوا، لكن التجارة التي تدرها عليهم أراضي أولئك الفلاحين، لا يمكن سجنها معهم.

تتحدث بحماس، كأنها في محاضرة؛ حين تلمح إعجابي بهذا المكان. قلت لها إنّني حتى لا أجد حرجًا في اسم الشارع الذي يعود للمحكمة المختلطة التي كانت تفصل بين المصريين والإنجليز؛ لأنه لا يجوز مقاضاة الإنجليز أمام المحاكم العادية. لقد آل ذلك كله إلى زوال، وبقيت هذه المباني؛ كما بقيت الأهرام ولم يبحث أحد في أجور العمال الذين بنوها، وكما بقيت مساجد المماليك والفاطميين ولم يسأل أحد عن بيوت الفقراء الكثيرة التي هُدمت لتشيّد مكانها، ولا إن كانوا قد عوضوا عنها أم لا.

قالت: «وما قيمة بيوت الله، حين تُبنى على بيوت البشر المهدومة؟».

- ليس لبناء هذه المساجد نفس القيمة التعبدية في عيون بُناتها. إنها قيمتها تاريخية؛ قيمة دعائية. إن الأمم التي تتميز بهيئة أبنيتها؛ تصنع حياة خالدة من الصخر في أروقة التاريخ. البشر يرحلون؛ يموت الظالم كما يموت المظلوم، ويموت معه الظلم الذي عاناه ولا يبقى منه أثر. لكن هذه البنايات باقية تحكي الكثير، حتى إن حكت عن هذا الظلم، فإنها تحكيه بثيابه الجميلة؛ تحكيه دون ألم.

أطالع النوافذ العالية والشُّرفات الواسعة، وأنا أقول: «إن الذين سكنوا بيوتًا بُنيت لتشارك الحياة ضوء الشمس، بنوافذها الكبيرة وشرفاتها العالية؛ لا يمكن أن يكونوا كالذين يعيشون في حجرات ضيقة بعضها فوق بعض».

حين كانت شرفات البيوت كبيرة، كان احتكاك الناس بالحياة أكبر، واهتمامهم بها أكبر أيضًا. أما حين ضربت ستائر القطيعة على النوافذ؛ فقد أظلمت القلوب أيضًا.

نمرّ أمام محل كبير للتصوير؛ نقف، ونتأمل الوجوه المبثوثة خلف الزجاج. اللوحات التي تتصدر محلات التصوير أول ما تُعَرف به مدينة جديدة؛ العرائس الممتلئات قليلًا هنّ الأكثر هنا. من العسير أن تدرك في تلك اللوحات شيئًا مما يدور في أذهان أصحابها. تقنيات التصوير الجديدة جعلت كل الوجوه كأنها تماثيل رخام صافٍ، القليل منها فقط يحمل روحًا حقيقية تجعلني أطيل النظر إليها.

تختلف الوجوه باختلاف أماكن محلات التصوير. تتغير أنواع الزينة وبريق العيون وابتهاج الثياب، الطريقة التي يتجاور فيها العروسان، وحتى النظرات التي يحملانها.

صور الأطفال؛ حياة مبثوثة وضجيج مكتوم. في الأحياء التي تقترب من النهر تبدو الصور ممتلئة بالحياة أكثر، أما في ظل المدينة؛ فلم أكن أجد إلا صورًا باهتةً تُحاكي تلك القريبة من النهر ولا تشبهها.

تُعرف المنصورة، في حكايات الناس ونوادرهم؛ أنها المدينة التي لا تلد إلا الوجوه الجميلة. كان ذلك أيضا حين اقتصرت المدينة على سكّانها وحدهم. في تاريخ المنصورة سكنها المماليك والشركس، ثم الأتراك والفرنسيون واليونانيون والإيطاليون. تحكي أسماء المدارس والمقاهي، وبعض المحلات القديمة؛ حكايات كثيرة عن سكّان هذه المدينة. أثرياؤها المصريون كانوا كثيرًا ما يتزوجون من الأتراك لأنهم أهل السلطة، أو الإيطاليين لأنهم أكثر تجار المدينة ثراء.

هدوؤها وبُعدها عن ميادين الأحداث؛ هو ما جعلها تحوز هذه الأهمية. أن يجتمع فيها المال والسلامة والبُعد عن عبثية الحياة في العاصمة؛ يكفي ليولد فيها هذا الجمال. يميل الجمال للهدوء والرزانة، ولا يمكن أن ينشأ في الحيوات العادية الصاخبة. يُكوّن صورًا حسنة لكنه لا يُكوّن جمالًا تامًّا. إنه كالحياة التي تُشكّل مادته؛ لا يمكن أن تكتمل إلا بهدوء. الحياة التي تنمو سريعًا كالخلايا التي تنمو سريعًا؛ ليست إلا أورامًا غريبة. مهما كانت مُسالمة؛ فإن شرًّا ما يختبئ فيها.

لم يجتمع في مدينة صغيرة أنواع كثيرة من الوجوه. في العادة لا يحدث ذلك إلا في العواصم الكبيرة والمدن الساحلية؛ حيثُ يكثُر المهاجرون، ويكون اجتماعهم اجتماعًا غريبًا لا تجانس فيه. أما في مدينة كالمنصورة، فقد كان اجتماعًا هادئًا مُتسقًا صنع لها تمام اسمها: «جزيرة الورد».

(٧)

لا أذكر نابلس. زرتها مرّات قليلة في الصيف مع أبي، مرتين أو ثلاثًا؛ لم يكن الوضع ثائرًا كما هو غالبًا. كانتِ الحياةُ تسير سيرًا يشبه حياة المريض الذي يعلم أنّه لا نجاة له من مرضه، يتعايش معه ولا يحرم نفسه متعة الحياة، حتى ولو عجّلت بنهايته. وحده المريض الذي يوقن باقتراب النهاية، يحرص على أن يعيش الحياة حتي آخر نفس.

في أول إجازة، شهدتُ عُرسَ منار، ابنة خالتي؛ لم أكن أعرفها ولا أعرف أختها، برغم أني ولدت مع أختها في نفس العام، هي في نابلس وأنا في عمّان؛ ولا أعرف خالتي. لا أعرف مِن أقاربي إلا خالي، الذي يعمل معنا في تلك المدينة؛ لم أرَ سواه، وقليلًا من أقاربنا كانوا يزوروننا في طريق سفرهم أو عودتهم.

أثناء الطريق من عمّان إلى الضفة، فكّرت هل بإمكاني معرفة ابنة خالتي دون أن يدلني عليها أحد؟ إن كان حنين الدم يستطيع إرشادنا إلى ذواتنا؛ فهل سأشعُر بشيءٍ غريبٍ إذا عانقت خالتي التي لم أرها من قبل؟ هل سيبدو حديثها مميّزًا في نفسي، وهي تقول لي: «كبرتِ يا ميس، لم أرك منذ كنتِ طفلة صغيرة».

وجه خالتي يشبه وجه أمي كثيرًا. كان عناقهما طويلًا، واختلط بدموع كثيرة ممن حولهما. تقول خالتي: «كانت أمّك تتمنى أن تراك هنا بيننا، لكن الوقت الذي بقي لها؛ كان أقل من أن يسمح بذلك».

- أريد أن أزور قبرها.
- سيأخذك حازم إلى هناك.

كأنها تريد أن تعتذر لها عن تأخّرها الذي أُرغمت عليه. الغربة هي التي فعلت ذلك؛ أخّرتها هذه المدة، وحرمتها الجلوس علي طرف سريرها؛ لتحكي لها عن تلك المدينة وما أخذته منها.

- كيف كانت تبدو قبل وفاتها؟ هل تألمت كثيرًا؟
- كانت تُنادي عليك كلما أفاقت. فنذكّرها أنك لست هنا، وأن بلادًا بعيدة تحتويك. فتسألني إن كنتِ سعيدة هناك.
أقول لها: «لا بدّ أنها كذلك».

لم تفارق أمي خالتي خلال المدة التي مكثناها هناك؛ تصحوان معًا، تسهران طول الليل تحكيان أحداث السنين التي مرت. منْ تزوج ومَن أنجب، مَن سافر ومَن عاد. أصدقاء طفولتهم وزملاء المدرسة. كانت أمي تريد أن تجمع كل السنين التي اغتربتها في نفسها. كأنّ الحكاية تصنع الحياة كما تصنعها المعايشة. تحزن على أحداثٍ مضى عليها زمن، وتفرح لأحداثٍ انقضت، وربما وقع بعدها ما يُكدرها.

أما أنا فلم أكن أشعر بشيء.

في الأيام الأولى، كنت فَرِحة بالمدينة الجديدة وبمَن حولي. كان فرحهم بلقائنا ينعكس عليّ. أنت ابنة سعاد! لقد صرتِ عروسًا. كانت أمك أجمل بنات هذا الحي.

كانت فرحتهم بلقائي فرحةً بلقاء أمي في صورتها يوم غادرتهم؛ ينظرون إليّ ويتكلمون معها. أمي التي عادت إليهم أكبر بخمس عشرة سنة عن تلك التي رحلت، لكن صورتها في نفوسهم قد وقفت عند نقطة تسبق هذه السنين. إنها الصورة التي وجدوها فيّ أنا.

اعتادوا صورة أمي الجديدة بعد قليل، فبدأت أشعر بالغربة والملل. أحنُّ إلى بيتنا الصغير؛ إلى غرفتي التي أقضي فيها أكثر وقتي، وإلى صديقتي نسرين، وأحلم باليوم الذي تنتهي فيه إجازتنا ونعود إلى هناك.

جاء عُرْس منار جميلًا، لكني لم أكن سعيدة. كنتُ أشعُر أني غريبة عمن حولي؛ أخوالي وخالاتي وبناتهن. اشتركت معهن في كل ترتيبات العُرس، لكني كنت أشعر أن صمتًا كبيرًا يحيطني ويحجب كل صوتٍ حولي؛ كأنّ كل ما حولي لا يعنيني في شيء.

* * * * *

زارتنا منار بعد زواجها بسنوات في المدينة التي كنّا فيها. عرفتها حينها إنسانة جميلة رقيقة حريصة على تربية ولديها. أصبحنا صديقتين سريعًا، مع ما بيننا من سنوات؛ ربّما بأكثر مما لو نشأنا سويًّا. لعل الغربة هي التي جعلتنا نقترب هكذا.

قالت لي منار إنّها تودّ لو ربَّتْ ولدها إياد، الذي كان عمره وقتها سنتين؛ ليصبح من فتيان حماس. وعَدَتْ الشيخ أحمد ياسين بذلك حين زارته مع زوجها في المستشفى. تقول إنه أعطى إياد وسلمى حلوى، وأعطاها هي أيضًا، ودعا لهم. كانت دائمًا تقُصُّ عليّ ما حدث في هذه الزيارة بكل تفاصيلها، وتقول كل مرة: «صدقيني يا ميس، كنت أشعر وأنا أجلس بجواره أني في الجنة. لن يختلف شعوري بالجنة كثيرًا عمّا شعرت به قرب هذا الرجل».

أشعر أنهم يعيشون هناك حياةً لا تُشِبهُ الحياة التي نعيشها. رغم أنّهم يسهرون ويتزوجون ويتسوّقون، يدرسون في المدارس والجامعات، بل يسافرون في بعثات بعيدة؛ إلا إنهم لا ينظرون للحياة كما ننظر لها. ربما لا يكون الموت قرارًا سهلًا، لكنه هناك يبدو كذلك. الموت هناك شريكٌ رسميٌّ في حياتهم. ما من بيتٍ إلا ويزوره الموت مراتٍ كثيرة. ولا يعني انتهاء يوم بسلامة، إلا أنّ خطرًا ما تركك اليوم؛ ليأتيك في الغد، لذلك أشعر أنهم هناك يحيون بحق. إن كل يوم هناك يُعَدُّ حياةً كاملة.

حياة أولها ميلاد النهار، وآخرها إغماض العين وقت النوم.

لا تكون الحياة حياة، إلا حين نخشى الموت. حين يكون وجوده واضحًا وضوحَ الحياةِ حوله.

(٨)

تتنبه حواسنا لندرِك الحياة فجأة، كأننا لم نكن نشهدها قبل ذلك.

نَمُرُّ على الألوان لا نلمسها، حتى يُضيء فينا لونٌ منها فجأة؛ كأنه خُلِق الساعة، فنرى به كل الألوان حوله. ونسمعُ الصوت مراتٍ فيُشرِقُ فينا لحظة؛ فكأننا ما سمعناه من قبل. وتمرُّ الأيام أصفارًا مُتعاقبةً، حتى يولد ذلك الواحد وراءها؛ فإذا الأصفار تغدو ملايين كثيرة في طَرفة.

بعض الناس لا يُثيرون صخبًا حولنا؛ إنما ينتشرون في نفوسنا من حيثُ لا ندري.

ليلى، الحاضرة بقوة في نفوس كل من حولها؛ لا تعرف إن كانت الحياة تتجمع حولها أو تنبعث منها. دائبة الحركة كأنها الشمس؛ تخشى أن تترك رُكنًا لا يصل إليه نورها.

نورها الذي يصل إليّ وَجِلًا مُرتجفًا؛ لا أستطيع أن أملأ نفسي به، ولا أن أنصرف عنه.

ليلى مسيحية. وفي المدينة التي كنتُ فيها لم يكن هناك مسيحيون إلا في كتب التوحيد والتاريخ، وفي كليهما لم تكن هناك علاقة إلا الاختلاف في الدين. وهو ما كان يُجسِّدُ معنى الكلمة التي لم تتضح لي من جواب أمي؛ حين سألتها -أول مرة- عمن يذهب إلى النار.

حين سمعت في المدرسة أنه لا يجوز لنا حُبّ النصارى، لأنهم من أهل النار؛ وأنّ من يحب أحدًا يحشر معه؛ حزنتُ لأنني كنت حينها أحبّ فيروز كثيرًا. كانت فيروز تُمثِّلُ نصف سعادتي في تلك المدينة الغريبة.

وإذا كانت رانيا هي التي كتبت بخطها كلمة الحب في نفسي أول مرة، ففيروز هي التي صحبتني وأنا أتعلم أحرُف الجمال الأولى في هذه الدنيا.

كيف لا أحبها وهي التي حين تغني؛ فكأن روحًا بيضاءَ تحيط بكُل ما حولي، وكأنّ الكون كلّه حرفُ نغمٍ في لحنٍ جميل.

كيف لا أحبّها وهي التي صحبتني حين عرفت رانيا، وحين سافَرْتُ، وحين تركتُ الغربة إلى غربتي الجديدة.

فيروز التي لم يكن يمرّ يوم دون أن أُلقي عليها السلام، دون أن أغني معها، «يا مرسال المراسيل» و«يا دارة دوري فينا»؛ وأضحك من القمر وهي تقول له: «لو ما بتقعد تتسمع، وتفضح العشاق».

حينذاك لم يمكنّي أن أفكر في ألّا أحبها.

كان بدهيًّا أن أكرر نفس الأسئلة وأنا أتذكر ذلك. أستعيدها بغير عقل الطفل الذي يسأل عن الجنة والنار، أول مرة؛ وهو لا يشعر أن شيئًا منها يمسه أو يعنيه.

أكررها وأنا أشعر أن ما لم يكن يعنيني قد أمسى قريبًا جدًّا مني؛ من أشيائي التي أحبّها، ومن أحرفي التي أصنع بها حياتي الصغيرة.

تعود رانيا حاضرة أكثر.

وتكبر فيروز، وأنا أسأل:
ما هو الدين؟
وهل يختار لنا الدين ما نحبّ؟
ولماذا يتدخّل في كل شيء في حياتنا، حتى الحب؟

في السابق كنت أجد الأسئلة كثيرة. ولمّا لم أجد شيئًا أرتاح إليه كففتُ عنها، واعتبرت أن فيروز ليست ممن يتعين عليّ ألا أحبهم. لم أبحث عن دليل، وعلقت الأمر على ذلك، وأنا مقتنع أن بعض الأسئلة حين نسألها؛ فإننا لا نصل لإجابات، حتى لو كانت إجاباتها ظاهرةً بيّنة.

لأجل ذلك كله؛ كانت ليلى بعيدة عني. ولم تفلح الكلمات القليلة، التي كنا نتبادلها لمامًا؛ في اختصار تلك المسافة.

* * * * *

كالألوان القابعة في طرف السماء، تنقلها من ظلام الليل إلى نور الصباح؛ لا تستطيع أن تصنع حدًّا واضحًا بينها، فلا تعرف في أي درجاتها انتهى الليل.

هل يمكننا وضع أيدينا على الخطوط التي تفصل ألوان الشفق، أو ألوان ميلاد النهار؟ إنّنا قد نستطيع وصف لون كلّ جزءٍ فيها، لكننا مهما حاولنا فلن نستطيع أن نجزم أين انتهى الأحمر ليبدأ البرتقالي. وكما لا ينفصل الضياء والظلمة في السماء بحدٍّ واضح نُدرِكُه؛ فكذا الضياء والظلمة في نفوسنا.

بدأ شيء ما يتسرب إلى نفسي.

إذا جلست أدوّن يومياتي؛ أجد ليلى وقد احتلت جُزءًا كبيرًا فيها. وإذا سمعت أغنية أحبها؛ أشعر أن ليلى حاضرة معها. وحين أُقلِّبُ الأسماء على هاتفي؛ أَقِفُ طويلًا أمام اسمها. إذا أعجبتني رسالة؛ مررتها إليها. وإن بدت لي علة حديثٍ؛ هاتفتها. ولا أكاد أُنهي حديثي معها؛ حتى يعود الحنين إليها أكثر مما كان.

أبحث عنها إذا غابت. أتلمس الأماكن التي تكون فيها، وأسماء الذين تكون معهم. أبحث دومًا كيف تلقت كل كلمةٍ تكلمت بها. أفعلُ كلّ ذلك على وَجَلٍ، أو هكذا بدا لي.

كان شعور زائف بالاطمئنان يخبرني أن شيئًا لن يحدث بيننا؛ فليس من طريقٍ مُعبّدة لذلك.

فأتمادى في تقدُّمي مُتوهِّمًا الأمان.

إن الماء اليسير لا ينتظر –عادةً– طريقًا مُعبّدةً يسير فيها. إنه يشق طريقه حيثما استطاع ملء فراغات الأرض؛ ليأخذ بعضُه بيدِ البعض، حتى يملأها ويسيل.

(٩)

حسين أكثر الوجوه نشاطًا في طلبة التيار الإسلامي، كما كانوا يُوَقِّعون؛ أو طلبة الإخوان المسلمين كما يُحبُّ أن أسميهم. لا يترك محاضرة يمتلئ فيها المدرج؛ إلا ويلقي كلمة قصيرة قبل مجيء المحاضِر، ومعه طالب آخر يكتُبُ حديثًا على السبورة الفرعية، فلا يمحوه أحد من المحاضرين في العادة.

يتكلم حسين عن الاختلاط، والعلاقة بين الشباب والفتيات، وعن أحوال المسلمين في العالم. يقرأ خبرًا أو اثنين عن شهداءَ في فلسطين، أو يُذكِّر بأحداثٍ ومذابح قديمة مما وقع هناك.

لا تخف الضجة في المدرج أثناء كلمته. لا يلتفت لحديثه كثيرون. في الأوقات التي أكون فيها مُنفردًا؛ أُصغي إليه. يبدو مُرتبكًا دائمًا؛ ينظر إلى الباب بين جمله القصيرة، ولا يُعيرُ هرج المدرج بالًا. وفي أيام المظاهرات؛ يبدأ إعلانه عنها دائمًا بآية: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾. [١] ثم يتكلم عن فضل الجهاد، وأنه إذا حِيلَ بيننا وبينه؛ فلا أقل من كلمة حق نلقى الله بها.

---

(١) سورة التوبة؛ آية ٣٨.

يثير حديثه خوفًا مُبهمًا في نفسي، خوفًا يصل بي أحيانًا إلى حدّ الفزع. أيكون صادقًا؟ وأن انصرافي عن المسيرات تثاقُل إلى الأرض؛ كما يسميه؟ أفهم الآية في الجهاد، وشتان بين الجهاد والمظاهرات. صحيح أن ذكر الجهاد يخيفني، إذ تبدو صورته مُبهمة في نفسي، لا قرار فيها؛ صورة الموت وحده، وهي كافية لتصرفني عن التفكير فيه.

رآني مرة واقفًا أراقب المظاهرة؛ فسلّم عليّ وسألني عن أحوالي، وهو يعلق ذراعه بذراعي؛ حتى وجدت نفسي أسير معه وسط المظاهرة.

حين تكون واحدًا وسط آلاف السائرين؛ فإنك تسير معهم لا إراديًا. وحين يهتفون؛ فإنك دون وعي تهتف بذات هتافهم، وينتقل إليك حماسهم. في ذلك اليوم؛ أدركت أن كلّ عملٍ كبيرٍ تصنعه قلة ما، تتبعها كثرة طائعة. حتى الحضارات تُبنى بهذه الطريقة. لا تحتاج الحياة لأكثر من هذا؛ يكفيها واحد فقط يصنع لها الفكرة، أيّ فكرة؛ ثم يسير الناس على خُطاه.

حين يكثُر أتباعك افعل ما تريد، ولا تخشَ شيئًا؛ فلا بُدّ أنك ستنجح.

*****

اتّصلت علاقتي بحسين، أو اتصلت علاقته بي؛ لأنه هو الذي بدأها ذلك اليوم. صار يُصاحبني طويلًا إذا لقيني. يسألني عن أخباري، وإن كنت أحتاج إلى شيء يمكنه مساعدتي فيه.

حسين ريفي باقٍ على ريفيته، برغم أنه سكن المنصورة منذ بداية المرحلة الثانوية. كان كل ما فيه بكرًا؛ لهجته وثيابه، والطريقة التي يتعامل بها مع

كل شيء حوله. صوته أعلى مما هو عليه، إذا تحدث في المدرج؛ وأكثر حيوية وانطلاقًا.

يُساكن طلبة آخرين في شقةٍ قريبةٍ. غرفته تملؤها الفوضى؛ مكتب مجاور لباب شرفة صغيرة. يملأ الغرفة نور الشمس من باب الشرفة؛ وعلى المكتب أوراق كثيرة مبعثرة، تعلوه صورة كبيرة لمسجد قبة الصخرة، ألصق في ركنها صورة مقصوصة من مجلة للشيخ أحمد ياسين، وصورة للدكتور عبد العزيز الرنتيسي في الركن الآخر، وعلي سريره ثياب كثيرة؛ جمعها بيده في ركنٍ، وهو يفسح لي مكانًا أجلس فيه.

يحتفظ بكتبه في صندوقٍ صغير تحت السرير. أخرجته لأقلِّب فيه حين تركني وذهب يُعِدُّ الغداء. في أول الصندوق كُتُبُ الدراسة ثم كتب أخرى. قلّبت فيها؛ وأنا أسأله: «لماذا هذه المظاهرات؟».
أقرأ عناوين الكتب التي يحتفظ بها؛ وهو يجيب: «لئلّا ينسى الناس قضيتهم».
«شمول الإسلام»، «الرسائل»، «فقه السيرة»، «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، «هذا الدين».
أكمل قراءة العناوين، وأنا أجيبه: «لن ينسوها؛ لأن الأخبار لا تغيب عن أحد. نحن نسمعها منذ كنّا أطفالًا».

شعرت أني أريد أن أساله لماذا لا أشعر بشيء في أثناء تلك المظاهرات سوى الخوف. لا أشعر بغضبٍ مما يبدو عليهم. خجلت من إخباره أني أشعر أن الأمر لا يعنيني. كان لي أصدقاء فلسطينيون قبل حضوري إلى هنا، ولم يكن الأمر يمثل لهم شيئًا. كانت حياتهم تشبه حياتنا هناك، ذات الغربة؛ بل إنهم كانوا أكثر اندماجًا وتصالحًا. لماذا إذًا نغضب نحن؟ أي صلة لنا بما يحدث هناك؟

كان يُتم حديثه وأنا أفكر في هذا الكلام، ثم قال: «في الحديث *أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم*».

كانت عبارته هذه كافية لألوذ بالصمت.
لتعود كل أسئلتي بقوة مرة أخرى.
ماذا يلزمني أن أفعل؛ ليتحقق انتمائي للمسلمين؟
من أحبُّ ومن أبغض؟
كيف أسير؟
وأي طريق أسير فيه؟

ما الحدود التي يرسمها الدين لنا، والتي لا ينبغي علينا تعديها؟ أهناك قائمة أفعالٍ إن التزمتها؛ حافظت على انتمائي للإسلام؟ وكيف تكون المحبة والانشغال -وهما عمل قلبي لا حيلة لنا فيه- مما يترتب عليه أمر الانتماء؟

طرحتُ كل أسئلتي على حسين فجأة. لم أدعه يكمل حديثه، وأنا أكرر عليه كل الأسئلة التي تجمّعت لديّ مرة واحدة.

مدّ يده إلى الكتب التي في يدي، واختار منها كتابًا صغيرًا، وهو يقول: «فيه جوابك الذي تريد».

كان الكتاب صغيرًا، فلم ألتفت إليه حين كانت الكتب بين يدي. يحمل عنوانًا واضحًا؛ سؤال واحد يختصر كل الأسئلة التي راودتني: «ماذا يعني انتمائي للإسلام؟».

فرحت بالكتاب حين قرأت في مقدمته: «وغاية الجزء الأول من هذا الكتاب هي الإجابة على هذه التساؤلات جميعًا، وتبيان ما يطلبه الإسلام ليكون انتماؤك له انتماءً صحيحًا وحقيقيًا، وبالتالي لتكون مسلمًا حقًّا. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.[1]

لا بدّ أن أكثر الإجابات التي أريدها حاضرة هنا. بدأت أتعرف على الإسلام في هذا الكتاب. كان إسلام «فتحي يكن» مُنظَّمًا جدًّا، ومرسومًا بوضوح وعناية.

أن أكون مُسلمًا في عقيدتي، وفي عبادتي، وفي أخلاقي مع أهل بيتي ومع نفسي. يرسُم الصورة بخطوطٍ حادة لا لبس فيها، وباتساعٍ كبير لا ضيق معه. يشرح علاقة الإنسان بكل ما حوله؛ بالله الذي خلقه، وبالكون الذي خلقه الله للإنسان. يرى أنّ الإسلام يُنظِّم كل ذلك، ويبتعد به عن الفوضى والعبثية. ينظم الصلة بين مُرَكَّبات الإنسان كلها؛ بين عقله وجسده وروحه.

كان حديثه قادرًا على إيصال هذه المعاني إليّ، حتى إذا وصل إلى ضرورة العمل للإسلام؛ أتعثر من جديد. يحملُ هذا العملُ في نفسي معانيَ كثيرةً؛ تنتهي كلها إلى الخلافات الكبيرة بين أكثر العاملين في هذا المجال.

(١) سورة الحج؛ آية ٧٨.

بالطريق العقلي: «أصل الاختلاف الجهل»؛ انتفاء المعرفة الكاملة بشيء مما يجعل الحكم عليه غير تامّ. برغم ذلك لا يمكننا اتهام هؤلاء جميعًا بالجهل. أسماء علمائهم والكتب الكثيرة التي ألفوها تقول ذلك. إلا إن كان العلم وجوهًا متعددة، وليس شيئًا واحدًا. أي أن للنور صورًا كثيرة.

لا يمكن أن تصنع المعرفة وحدها الصلة الروحية المتجانسة بين الناس، وإلا لما ظهر اختلاف بين أهل الأديان المختلفة؛ لأنها في الحقيقة تنتهي إلى أصل معرفي واحدٍ هو الله. وحدة المنشأ، ووحدة الغاية، ووحدة الطريق؛ كل ذلك مُجْتَمِعًا هو ما يؤدي إلى التجانُس.

والدين ينطلق من نقطة واحدة، هي النفس الإنسانية؛ وينتهي إلى غاية واحدة، هي الله تعالى. والإسلام يخرج من أصلٍ واحدٍ، هو النص الإلهي؛ وينتهي أيضًا إلى مآلٍ واحدٍ، هو تحقيق مقتضى هذا النص في الوجود.

أصِل إلى هذه العبارة بعد انتهائي من قراءة الكتاب. يقول إنه حتى الخير والجمال حين يكونان مجردين من عقيدة وإيمان؛ فإنهما لا يُشيعان شعور الرضا الذي تطمئن به النفس الإنسانية.

كان الكتاب يُرتِّبُ مفردات كثيرة بقيت هائمة لا تستقر في نفسي زمنًا طويلًا. وحين تقع الكلمة على موضعها، أو موضع يُشبِهُه؛ أستشعِرُ اتزانًا هادئًا. المعرفة تصنع الاتزان، وتوهُّم المعرفة أيضًا قد يفعل ذلك. غير أن الاتزان الذي تصنعه المعرفة، يكون أكثر استقرارًا وأدوم مما سواه.

(١٠)

يُصيبني الارتباكُ عند التفكير في هؤلاء الطلبة. إذ تقع علي فترات، في مسجد الكلية؛ مشادات خفيفة بين حسين والمحيطين به، وبين طلبة آخرين، يتزعمهم طالب يُسميه زملاؤه بالشيخ «حازم». كان حازم طالبًا في السنة الخامسة؛ كثيف اللحية، خفيض الصوت، يصلّي بنا الظهر كل يوم، ثم يلتفت إلينا فيتحدث حديثًا قصيرًا هادئًا. لم يكن حديثه يخرج عن أوصاف الجنة والنار، وأخطائنا في الصلاة، وأحكامٍ أخرى قليلةٍ. وللشيخ حازم حضور كبير بين الطلبة؛ يقبلون منه تعليقاته أيًّا كانت، حين يمرّ عليهم مُسرعًا وهو يتحاشى النظر إلى الفتيات.

تحدث المشادات عادةً، إذا تحدث أحد أصدقاء حسين بعد الصلاة، أو اجتمعوا لقراءة القرآن في حلقةٍ واسعة؛ يجتهدون أن يكون حضور الطلبة فيها كبيرًا. يرى حازم وأصحابه أن عملهم هذا متاجرة بيّنة بدين الله؛ يقولون إنهم يجمعونهم على القرآن، ليعلموهم نسخة الإسلام التي يحملونها، لا الإسلام الصحيح.

أما حسين؛ فكان يقول عنهم: «إنهم لا يحسنون فهم الإسلام كما ينبغي أن يكون. يحصرونه في عبادات وأخلاق، مُتناسين أنه نظام كامل لعلاقات

الإنسان في الحياة. وأن الله حين خلق الإنسان وكلفه بعبادته؛ كلفه معها بإعمار الأرض واستخلفه فيها». قال: «ولو صح تعبير نسخة الإسلام في وصف ما نحمله؛ فهي إن لم تكن النسخة الأصح؛ إلا أنها أرحب كثيرًا مما يحملون».

*****

حاولت البحث في أصول هذه الحركات. شعرت أن معرفتي بذلك؛ ستُمكنني من فهم أسباب الاختلاف الذي أجده بينهم. ما دام الأصلُ الذي يدّعون الانتساب إليه واحدًا، فلا بد أن يكون الطريق مُتشابهًا في غالبه. وأيُّ خلافٍ فيه سيكون مرده إلى عوامل أخرى سوى الطريق. يعود ظهور الحركات الإسلامية إلى الفترة التي أعقبت انتهاء الخلافة الضعيفة في تركيا. التي صاحب انهيارها موجة استعمار عارمة، وفجَّر إحساسًا عامًّا بالخوف على الهُويّة الإسلامية للمجتمع. لا سيّما حين اتضحت الفروق الكبيرة بين ما أصبح عليه المجتمع الشرقي من تأخُّر، وما وصل إليه المجتمع الغربي المستَعمِر من تطوّر في كل مناحي الحياة. وحتى أولئك الذين حملوا همّ الهُويّة الإسلامية والدفاع عنها؛ لم يسلموا من صدمة اتساع الفروق بين الثقافتين. كان لزامًا على هؤلاء أن يجدوا أولًا تفسيرًا لما حدث، دون إلصاقه بالصفة الإسلامية للمجتمع، وهي اللهجة التي شاعت في حديث كل من انبروا لبيان العِلل التي لأجلها اتسعت الفجوة لهذه الدرجة؛ مُهاجمين الإسلام باعتباره سببَ ذلك.

وطبيعيّ لأمةٍ تعتبر دينها هو الأصل، الذي تتفيأ ظله طوال وجودها؛ أنْ تُدافع عنه، ولا تتركه نهبًا لهذه التفسيرات. بل تهرع إليه لتبحث فيه من جديد. تعيد قراءته، وتتبع نصوصه؛ لتكتشف أن هذا الدين قد تنحى عنها حقيقة منذ عصور، وإن بقي اسمًا وهيئة تُشبه ماءً في زجاجة الدواء. يخدع المريض؛ ليتصبّر به ولا يداويه.

في تلك الفترة تولدت الشرارات التي اقتبست منها هذه الحركات جذوتها. اختلطت كلها بالحركات الوطنية في فترة الاستعمار الذي هدد الوجود والهُويّة. وحين أقبلت سنوات الاستقلال الصوري التي شملت العالم الإسلامي كله؛ بدأت علاقات جديدة بالتشكُّل بين هذه الحركات والمجتمعات التي تعيش فيها، والأنظمة الحاكمة الجديدة.

انتفت الصبغة الوطنية حين زال الاستعمار، هكذا بدا للجميع. كانت الهُويّة الجامعة التي حركت الجميع تتهاوى، ربما أسرع من تهاويها إبان وجود المستعمر.

كانت أكبر هذه الحركات على الإطلاق؛ جماعة الإخوان المسلمين في مصر. فهي التي تخرَّج منها أكثر الذين استقلوا بحركات صغيرة فيما بعد. بعض هذه الحركات تيسرت له سبل النمو الفكري، حتى أصبح قائمًا بذاته؛ وبعضها أقيم على قشور لا تحمل لُبًا، فاستهلك نفسه سريعًا، ولم يبق منه إلا تاريخ قصير.

تواريخ هذه الجماعات الصغيرة، التي لم يُكتَب لها البقاء؛ أكثر صخبًا وحضورًا مما سواها. كانت أحداثهم أكثر ضجيجًا ودموية، كما كانت

انقساماتهم سريعة ومتتالية، وككلّ البِنَى الفكرية ضيقة الحدود التي لا تستطيع استيعاب ذاتها، فتفشل في استيعاب المجتمع المحيط بها؛ كانت تلك الحركات أشبه، في نموها وفنائها؛ بحركات الخوارج المتتابعة في صدر الإسلام، وإن اختلفت العلل المسببة لظهورها.

كان الهدف الذي يحمله الجميع في ذلك الوقت، إعادة الحياة لدولة الإسلام المفككة؛ هدفًا يبدو واضحًا في لفظه، لكنه لا يحمل حدودًا واضحة معلومة. ربما كان هذا هو الهدف الوحيد الذي اجتمعت عليه كل الحركات الإسلامية طوال التاريخ.

حين تكتشف أنك مختلف عمن حولك، في هدفك وحركتك؛ سرعان ما تكسو هذا الاختلاف لغةً تجعله أكثر وضوحًا وتمايزًا، وهو ما حدث مع الخوارج والشيعة والمعتزلة، ومع جماعات العصر الحديث أيضًا.

في البدء كانت فكرة وهدفًا، ثم بُنِيَ حولها منهجٌ ورؤيةٌ وأسلوبٌ، ثم وجّهت انتقادات ومآخذ، ثم ردّ عليها أعقبه تعصبٌ وحمية، ثم رفضٌ مطلق لما عليه المجتمع، يتبعه رفضٌ مقابل من المجتمع؛ للفكرة والهدف والمنهج والأسلوب.

(١١)

كجذور الأشجار الممتدة في باطن الأرض، لا تراها أو تشعر بها؛ تتشابك أطرافها، وحين تجرب انتزاع إحداها، تهتز الأخرى؛ ساعتها تُدِرك أن شيئًا ما لم تكن تراه قد وقع.

نتحدث في أشياء كثيرة. يفتح حديثُها أبوابًا لم أكن أراها في الحياة. أتعلم معها كيف أتلقى رسائل الجمال، التي يحملها كل شيء حولي. تقول إن الله لم يخلق الدنيا جميلة ليأمرنا بالانصراف عنها؛ لا بدّ أنها تحمل رسالة أخرى أكبر من كونها اختبارًا قاسيًا نستحق به الجنة. الله أجمل من أن يلقينا في هذا الكون الجميل، ليقول لنا انصرفوا عنه.

قلت لها: «لأنه يخبئ لنا عالمًا أجمل».

قالت: «وكيف يمكننا إدراك الجمال في الجنة؛ إن لم نتعلم ذلك في الدنيا؟ من لا يعرف الجمال لن يسعَد به».

قلت لها: «إن الله سيعلمنا وقتها كيف نرى ذلك الجمال».

قالت: «ولماذا إذًا استعمل اللهُ معارفَ البشر، ليخبرهم صفات الجمال في الجنة؟ في الجنة لن تكون لنا حواسّ جديدة، فقط ستُصِبحُ حواسنا أقوى وصوارفنا أقل».

في حديث ليلى دائمًا أركانٌ جديدةٌ مضيئة؛ تجعل الدنيا أرحب وأكثر إضاءة.تكتسب الأشياءُ معها معانيَ جديدةً غير معانيها التي اعتدتها. أصبحت أشعر أن أي شيء تمتد إليه يدها؛ يصير جميلًا. لا يكفي الحُسن القابع في الأشياء، ليملأنا حين نراه إحساسًا بالجمال؛ أحيانًا ينقصنا مفتاح صغير يفتح لنا ذلك.

مع ليلى أجد هذا المفتاح.

الصباح الذي يبدأ باسمها، على شاشة هاتفي الصغيرة؛ لا يشبه أي صباحٍ عرفته قبل ذلك. لا يُشبهُ الصباح الذي تلده الشمس كل يوم. كأنما يولد هذا الصباح من داخلي؛ فيُنير العالم حولي.

صوت أم كلثوم؛ وهي تغني: «الكروان غنى وصحانا»، أو فيروز؛ وهي تقطف وردتها: «بقطفلك بس هالمرة وبس، عابكرة عابكرة بس، شي زهرة شي زهرة حمرة وبس».

تقول ليلى: «في حضن الموسيقى نكون أقرب للسماء؛ أكثر انطلاقًا وخفة. الموسيقى تنظيم للصوت، وللزمن، وللحياة».

الموسيقى بحثٌ عن صفاء الروح، عن التحرُّر من الجسد الذي نشعر بأنه يُقيدنا لهذه الأرض. فالإنسان يسعى دومًا ليسمو فوقها، ليتحرر منها. إن أول ما يفعله الطفل الذي يتعلم السير، إذا رأى درجة صغيرة تعترضه؛ أن يضع قدمه فوقها مُحاولًا ارتقاءها. نحن نبحث في حياتنا دومًا عن الارتقاء،

عن العلو إلى السماء؛ لذلك تطغي الموسيقى على الطقوس الدينية عند أكثر طوائف البشر. إنهم يحاولون الوصول بها إلى السماء.

أحيانا أشعر أنه يكفي الاستماع للشيخ عبد الباسط عبد الصمد لاعتناق الإسلام، حتى لو غابت عني معاني ما يقرأ؛ ففي القرآن موسيقى خاصة جدًّا، موسيقي فريدة.

الجمال هو العلاقات الواضحة والنسب الموزونة.

للحرف الجميل -كما للوجه الجميل- موسيقى. الموسيقى هي اللغة التي يُكتَبُ بها الجمال. قِسْ أيّ معنى عليها، فإن استقام فهو جميل. إن استطعت تحويل أي صورة حولك إلى لحنٍ تسمعه في نفسك؛ فهي الصورة الجميلة.

أحببت الدنيا كثيرًا من عيني ليلى. وأحببت نفسي أكثر. كنتُ أشعر أني جميل حين ألقاها، أن في نفسي أشياء لا أدركها؛ تنكشف لي إذا حضرت، وتغيب عني إذا غابت. حتى أصبح غيابها غيابًا لنفسي الجديدة، وخوفًا من فقدها.

ومع كل اكتشافٍ جديد؛ يزيد تعلُّقي بها وخشيتي من أشياء كثيرة تتراكم في نفسي. كنت أخشى مصارحة نفسي أنني أقترب من حبها. حين تصل في علاقة ما إلى التصريح لنفسك بأنك تحب؛ فلا بُدّ من خُطوةٍ تاليةٍ، وإلا سينهار كل ما حولك.

لا يولَد الحب بريئًا أبدًا، بل لا يولد طفلًا كما تعلمنا. حين تكتمل أعضاؤه في نفسك؛ يكون في أوج قوته وهو يسألك سؤالًا واحدًا: «ماذا ستفعل؟».

وهو السؤال الذي لا ينتظر إجابته طويلًا؛ فإما أن تجُيب سريعًا، وإما يعتبرك مُتمردًا عليه، وغير مُقدِّرٍ لقيمته.

وهو في ذاته مغرور؛ لا يرى أيّ شيءٍ سواه، ولا يُقيم وزنًا لكلّ قيم الحياة حوله، برغم أنّه شريك فيها جميعًا. كل عواطف البشر الحسنة، يشغل الحبّ مكانًا بارزًا فيها، لكنّه منها كماء الورد؛ قليلٌ منه يمنح الماء عِطرًا جميلًا، وكثيرُهُ مُرٌّ لا يُحتمَل.

حين يأتي مُجردًا، فليس في وسع أحدٍ احتماله مهما حاول.

لحظة اعترافك لنفسك بحبٍ، هي لحظة انهيار السد الكبير أمام نهرٍ عظيم؛ إما أن تكون قواربك قوية مستعدة، وإما تتحطم في لحظة.

ومع ليلى، لا أعرف أي نوع من القوارب يمكنه أن يتحمل، ولا أي وجهة للشراع قد تحمل القارب إلى برّ الأمان.

(١٢)

مثَّلتْ ميس حضورًا آخر في نفسي. لم يكن له نفس العطر الذي يُشيعُهُ حضور ليلى، إلّا أنه في فترات تشكُّكي وأسئلتي الكثيرة؛ كان حضورها هو اللحن الهادئ الذي يُعيدني إلى حالة الصفاء الأولى، التي فارقتني منذ زمن.

كأنني أردّد وأنا معها:

كل شيءٍ أصبح مُرًا في فمي بعدما أصبحت في الدنيا عليمًا

آه من يأخذ عمري كله، ويعيد لي الطفل والجهل القديما؟

لماذا يرتبط الصفاء بالجهل، ويرتبط الجهل بالطفولة؟ أنا أحب الطفل القديم الذي يسكنني، وأكره أن يحكم عليه أحدٌ بالجهل. لم يكن جاهلًا أبدًا ذلك الطفل البعيد. كان قادرًا على أن ينام بهدوء، على أن يصحو سعيدًا، على أن يحلّ أكبر مُشكلةٍ تواجهه. لم يكن يجوع إلا قليلًا. لم يكن أيّ صارف يستطيع إثناءه عما عزم عليه.

كان يقف على حافة الشرفة لا يخشى السقوط؛ فلا يسقُط. يقفز الدرجات وينزلق على كتف السلم ويصعد فوق الباب، دون أن يخشى شيئًا؛ فلا يحدث له مكروه.

يسأل عن الله، وعن الجنة وعن النار، ثم ينسى كل ما سمع، ويُتم حياته التي اعتادها؛ لأن شيئًا لا يُكدِّرها.

ميس هي البوابة التي أعود منها إلى ذلك الطفل القديم. هي التي لم تشاركني طفولتي في حقيقتها، وإن شاركتنيها في هيئتها؛ فحتى برامج الأطفال التي كنت أتابعها في المدينة البعيدة، تعرفها وتحبها كما أحبها. إذا ذكرت لها «سالي»؛ غنّينا معًا أغنيتها التي أحبها: «أنا قصة إنسان.. أنا جُرح الزمان». ليدي، بوليانا، ريمي، وحتى الكابتن ماجد. نضحك كثيرًا إذا نقّبنا عن هذه الحكايات، ورغم تكرارنا لها مرات كثيرة؛ إلّا أنها احتفظت بقدرتها على إيقاظ الطفل القديم كاملًا في نفسي.

لم أكن أفتح معها أيّ نقاش حول ما أفكِّرُ فيه؛ يكفيني منها الطفلة التي تطويها. كأني أصاحبها بالطفل الذي فيّ وحده. وحين سألتني نفسي مرة إن كنت أحبّها؛ جاء جوابي سريعًا بالإيجاب.

نعم أحبُّها.

كان الجواب واضحًا بصورة لم أعتدها في أجوبة أسئلتي الكثيرة.

كنت أحبُّ ميس لا حبّ رجل لامرأةٍ، بل إنني تمنيت أحيانًا لو لم تكن فتاة؛ حتى أستطيع إخبارها بهذا الحب. لو أستطيع رسم معنى هذه الكلمة في نفسها، كما هي في نفسي؛ لأخبرتها بذلك.

في قلوبنا غرفٌ كثيرة نحتاج لمن يسكنها. نحتاج أن يمتلئ القلب كله؛ لنشعُر بالرضا. في هذه الغرف نُسكِن آباءنا وإخوتنا وأصدقاءنا، لكلٍّ مكانه

الذي يملؤه؛ ولا يمكن لواحدٍ الاستئثار بها جميعًا. تشريحيًّا؛ لا يقترف الدم هذه الجريمة، إذ يعلم أن لكلّ حُجرةٍ نوعًا له وصفه؛ فيقف عند ذلك لا يتعداه. لذلك كنت أشعر بضرورة وجود ميس لتملأ ركنًا في نفسي، وهو الامتلاء الذي جعلني أجيب بأني أحبها.

إن كل ما يسكُن القلب لا نجد له في اللغة إلا هذه الكلمة الصغيرة: الحب!

وحين نحبّ اللهَ، فإننا نُحبُّه من كل هذه الغرف مجتمعة، ومما حولها أيضًا؛ فينقلب حبّه، في حبّ كلّ من نحبّ؛ نورًا وسكينة وصفاءً ورضًا.

كنت دائمًا أسأل نفسي كيف يرتبط الإيمان بمحبة الله ومحبة الرسول ﷺ، والمحبة عملٌ قلبي لا يدَ لنا فيه. كيف يُعلِّق الله حسابنا على عملٍ ليس بأيدينا؟

يجيبني أستاذي أن المحبة هنا تعني الاقتداء.
قد نقتدي دون محبة، لأن عقلنا يعلم أن المصلحة في ذلك.
الحب غير ذلك؛
الحب شعورٌ باحتياجٍ وأمان،
بامتلاء بالمحبوب،
وبفناءٍ فيه.
الحب أعلى درجات القُرب بين ذاتين،
لذلك تعلَّق به تمام الإيمان.

وأنا أسمع حديث الرسول ﷺ: *«أحبّوا ما أحب الله، أحبّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا حديث الله وذكره»*؛ يسكُنني هذا الخاطر: من كل قلوبكم؛ أي من كل غرفها. من الغرفة التي أحبّ منها أبي، والتي أحب منها أمي، والتي أحب منها ميس. ومن الغرفة التي تُنازعني من لا أعرف يقينًا.

امزجوا كل أنواع الحب التي تسكُنكم بحب الله.

أفهم الآن معنى قول حسين بأننا نُعامِل الله في الناس. حين نحب أحدًا بقلبٍ يحب الله؛ فإننا نحبه من حبنا لله. بهذا الحب لا يمكن أن يشقى أحدٌ أبدًا. لا يمكن للحب، مهما بلغت قسوته؛ أن يؤذي قلبًا يحيطه حبٌ عظيم لله.

إنه يُصبح بردًا وسلامًا كما كانت النارُ بردًا وسلامًا على إبراهيم.

في كل هذه الأوامر بالحب أمرٌ واحدٌ يلزمنا أن نتعلمه بحقه. لا يمكن أن يكون حسابنا بما ليس في أيدينا، وليس في أيدينا سوى التعلُّم. فالله حين يقول اقرأ؛ يعني تعلّم كيف تقرأ. وحين يقول أحبوا؛ فإنه يعني تعلموا الحب قبل أن تحبوا.

تعلموا أين تقفون من هذه العاطفة الجبارة، وكيف تُخرِجون منها كل الجميل الذي خلقته لأجلكم فيها.

(١٣)

كثر اختلافي إلى حسين. أشعر معه أني كالمستظل من الحر، لكني بعدُ لم أجد الماء. لديه أشياء تنقصُني، لكنها لا تُتِمّني. أشياء ربما لا يدركها هو. كان قادرًا على الفهم بشكلٍ صحيح، لكني كنت رغم ذلك أشعر أن إجاباته كلها سابقة التحضير، كالرسائل الممررة في صندوق البريد؛ لا أشعر أنها لي وحدي دون سواي، وكان ذلك كافيًا ليوقع في نفسي نفورًا من نقاشه. كنت أريدُ أحدًا أكثر حيوية فيما يدين به. كان حسين شديد الولاء لما هو فيه، وهو على ذلك شديد القبول لكل شيء آخر؛ لا يُبدي ضجرًا من أيّ خلافٍ مع أي أحد، لكنه أيضًا لا ينزل عما يعتقده أو يطرحه للنقاش، وإن فعل؛ فهو نقاشُ حجاجٍ لا نقاش بحثٍ عن حقيقة، ومثله كثيرون ممن يجمعهم مسجد الكلية في صلاة الظهر.

ألمس توترًا دائما بينهم، خصوصًا في أوقات الصلوات التي تجمعنا. استطعت تمييز عدة صور للحركات الإسلامية في صفوف الطلبة؛ أكبرها كانت للإخوان، أما البقية فلم يكن من السهل تصنيفهم. ورغم أنهم عدة صور، لا صورة واحدة؛ إلا أنهم جميعًا يحملون اسم السلفية أو أنصار السنة. صحيح أني لم أجد فرقًا ظاهرًا بينهما، إلا أنك تستطيع بسهولة إدراك الفروق الظاهرة بين طلبة الإخوان المسلمين ومن سواهم.

عرفت من حسين أنّ أول علاقته بالإخوان كانت في قريته، حين كان يخرج ليلعب الكرة مع زملائه.

يقول: «كنت أذهبُ للعب الكرة، صباح كل جمعة؛ أنا وخمسة من أصدقائي. نكوّن فريقًا لعبنا به في كل القرى التي حولنا. كانت المباريات قصيرة، وكنا ننهيها قبل موعد الصلاة بوقت كاف؛ لنعود إلى البيت ونستعد للصلاة».

«بدأت ألحظ وجود شخصٍ يحضُر مبارياتنا. يقطعها بمسابقات صغيرة تدور أكثر أسئلتها في التاريخ والفقه، ومعه دائمًا جوائز صغيرة لنا».

«اعتدنا وجوده كلّ جمعة. وكنا نلقاه في المسجد أثناء صلاة العشاء، باقي أيام الأسبوع؛ يسألنا عن أحوالنا، وعن بقية الفروض؛ هل صليناها في المسجد أم في البيت».

«كان اسمه الأستاذ أسعد؛ طويلًا أسمر، في وجهه هدوءٌ، وله لحية سوداء صغيرة ترسم وجهه بوضوح شديد. كان رقيقًا جدًّا، وودودًا إلى حدّ بعيد».

«ولما أصبحت في المرحلة الإعدادية؛ طلب مني أسعد مرة بعد صلاة العصر أن أنتظره في المسجد. وجدت خمسة من أصدقائي ورفاق اللعب. جلسنا وقرأنا سورة النبأ، وتكلم هو كلامًا جميلًا لا أذكره، ثم أوصانا أن تتكرر مثل هذه الجلسات؛ لأنه ينبغي للمسلم أن تكون له ساعة من يومه يلتقي فيها بربه، يجدد إيمانه، وينظر في أعمال الأسبوع كله، ما صحّ منها وما أخطأ فيه؛ ويستمد القوة من مشاركة أصدقائه له، لأن العبادة فعل جماعي

لا فعل أفراد. ألم يقل الله في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟[1] لم يقل إياك أعبد، بل حتى دعاء الطعام نقول فيه: الحمد لله الذي أطعمنا، لا الحمد لله الذي أطعمني؛ دعاء جماعة لا دعاء فرد».

ابتسم وهو يكمل: «ومن يومها وأنا أنتمي للإخوان. أدركت ذلك فيما بعد وأحببته. تغير أستاذ أسعد إلى حسن، وحسن إلى إبراهيم. أشعر أن حياتي امتلأت كثيرًا؛ لأني عرفت هذا الرجل. تزوج وسافر بعد ذلك إلى الخليج، ولم أعد ألقاه إلا قليلًا. هو الذي علمني أن الحياة لله. أننا نحيا في كونٍ مركزه هو الله، وأن الحياة جهاد كلها، مع أنها محض عبور. كل خطوة فيها إنما تقربنا إلى الله، لذلك ينبغي أن تكون أعمالنا فيها أيضًا لله. علمني أننا لا نعامل الناس، إنما نعامل الله في الناس».

قلت: «ولكن الصورة الظاهرة للإخوان هي عملهم السياسي، لا التربية التي تتحدث عنها. حتى هذه التربية؛ إنما يراد منها إعداد قوة سياسية موجَّهة».

قال: «إن السياسة حركة، والفكرة التي لا تستطيع الحركة في البيئة التي تعيش فيها؛ تموت سريعًا».

- التحرُّك أم التلون؟

- التلون بأي شيء؟ حين ترى أننا نُجامِل في شرع الله، الذي نقول إنه دستورنا؛ أو نتنازل عنه، لأجل مكاسب ظاهرة؛ يمكنك استخدام هذا التعبير. أما حين نُعيد صياغة فكرتنا بلغة يمكن للناس إدراكها، وأصل الفكرة واحد لم يتغير؛ فأي عتب في ذلك؟

---

(١) سورة الفاتحة؛ آية ٥.

قلت: «لكن السياسة تصرف عن الطريق الذي تسيرون فيه؟».

قال: «وهل يمكننا حذف سورة التوبة من المصحف، وهي كلها تتحدث في السياسة؟ الحياة في الإسلام كيان واحد متصل. الله الذي خلق المجرة الكبيرة، وشرع لها نواميسها التي تسير عليها؛ خلق أيضًا الذرة الصغيرة، وجعل لها نفس القوانين تسير بها. لا تختلف الأجرام الكبيرة في حركتها عن الكهارب الصغيرة».

«وحين ينظم الله بقانونه حياة الأسرة الصغيرة، فإنه ينظم بها أيضًا حياة المجتمع الكبير. إذ كيف يمكن تحقُق العبودية لله، حين لا تحكم شريعته الفرد والأسرة والمجتمع الواسع؟».

قلت: «ربما لا ينكر أحد أحقية الله في تنظيم حياتنا، لكني لا أفهم كيف يكون هذا التنظيم بيد جماعة من البشر».

قال: «وهل يكون بيد جماعة من الملائكة؟».

قلت: «لكن البشر يختلفون في فهمهم، وفي طرقهم التي يصلون بها؛ حتى لو كان الأصل واحدًا. السلفية، وأنصار السنة، وقبل ذلك الجهاد، والتبليغ، وأسماء أخرى كثيرة. مع هذا الانقسام الكبير، وهذه الرؤى المختلفة؛ حتى لو سلّمت معك باتساق الإسلام كبناء كامل لا يمكن اجتزاؤه؛ كيف نثق في العمل الإسلامي، في جدواه أو في مراده وفي القائمين به؛ ألا يشبه هذا قول أحدهم: إن الله لي وحدي! أليس الله لنا جميعًا؟».

«في الفترات التي أعقبت عودة المغتربين من الخليج؛ شرعوا بنقل صورة الإسلام السائدة هناك. حاولوا زرعها كما هي؛ فرفضتها الأرض قبل أن

يرفضها الناس، فظنّ أصحابها أنهم مُبتلون بهذا الرفض، وأن أي أذى هو ابتلاءٌ في سبيل الله. أليست الرؤية قد تصح في مكان، ولا تصح في آخر؟ السؤال أيضًا لماذا يستعمل الجميع هذه العبارة: في سبيل الله؛ حتى لم نعد نعرف ما هو هذا السبيل؟».

قال: «لكن الإسلام في ذاته يصحّ. الإسلام بذرة تُلقيها في الأرض؛ فتنبت، لا شجرة تقتلعها من أرض لتزرعها في أخرى، ثم تُخضعها لقانون الإنبات: وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ».[1]

«سبيل الله واسعة، تسع الناس جميعًا؛ لا يمكن إغلاقها أو قصرها على رؤية. هذا أول ما ينبغي أن يعرفه مَن يسير في هذه الطريق. بعضهم يسير في منتصفه، وبعضهم في أقصى طرفه، وبعضهم يقف ولا يسير؛ وكلهم مع ذلك في هذا السبيل».

- يعني أن العبرة في الوصول، لا في الطريق؟

- في كليهما؛ بغير الطريق لن تصل، وبغير السير الصحيح لن تصل أيضًا. في الطريق الطويلة تلزمك أدوات للسير، ينبغي عليك أن تحسن اختيارها. قد لا تلتقي في منتصف الطريق باستراحة تختبر فيها ما وصلت إليه، وما بقي من مراحل. قد تُفاجأ أن البدايات الواحدة لا تعني أبدًا نهايات واحدة، ولو تشابهت في هيئتها.

---

(١) سورة الرعد، آية ٤.

(١٤)

لم أكن أعي ما يحدث حين اقتادونا إلى سيارة كبيرة في الشارع المجاور. في العادة تنتهي كل المظاهرات بسلام دون المساس بأحد. حتى في المرات التي اختطف فيها بعض الطلبة، لم يحدث ذلك في وقت المظاهرة، إنما بعدها؛ في جوف الليل الساتر، وبعيدًا عن أماكن التجمُّعات الكبيرة.

في ذلك اليوم، كانت المسيرة أكبر من كل مرة، وحين انتهت قُرب العصر؛ خرجتُ مع حسين وزميلين له، ولم نكد ننعطف في أول شارع حتى برزوا لنا.

انتهى الأمر سريعًا في سيارة كبيرة تقف نهاية الشارع. أبحث في وجوههم عمّا يُبدِّدُ خوفي، عمّا يزيل توترًا جعلني عاجزًا عن الإدراك أو حتى السؤال. يحيط بهم هدوء غريب، كأنهم كانوا ينتظرون ذلك أو اعتادوه.

مرَّت دقائق والسيارة تمتلئ بطلبةٍ كثيرين. ولم تكد تتحرك، حتى بدؤوا من جديد يهتفون، كأنّهم لم يُنهوا المظاهرة بعد.

ذات الهتافات المدوّية تُردِّدها جدران السيارة، التي تحركت بِبُطء بين السيارات الكثيرة في ذلك الوقت المزدحم. الهتافات التي خبا صوتها في نفسي؛ فلم أعد أسمعها، ولا أجد ذات الحماس الذي أجده أثناء المظاهرة.

كانت الحجرة التي أُجلسنا فيها نظيفة، مدهونة الجدران، وبها نافذة متوسطة تتقاطع عليها قضبان الحديد على شكل زخارف إسلامية، يمتد ظلها على الأرض مُتسعًا حتى يصل إلى الباب. ولون الشمس الغاربة يجعل الجدران البيضاء تتوهج بلون أصفر، يخلع عليها رهبة صامتة.

سألني حسين: «أتشعر بالخوف؟».

لم أجبه؛ لم أكن أقوى على فتح فمي مما أجد فيه من جفاف.

قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.[1]

في نفسي كان سؤال واحد: «هل نحن مِن هؤلاء؟ ممَن استحقوا هذا الوعد بالأمن؟».

* * * * *

بعد انقضاء الأيام الأولى، بدأت الحياة تُصبح أكثر انتظامًا. نقلونا إلى سجن صغير تنفتح لنا أبوابه الداخلية بعد الفجر، فيسهل انتقالنا بين الحجرات المختلفة؛ وتغلق عند الغروب.

يبدأ اليوم قبل الفجر، حيثُ يستيقظون ويؤمهم «رضا» في صلاة قصيرة قبل الفجر. كان القرآن يخرج منه صافيًا نديًّا، يسيل في نفسي سيلانًا؛ ولا يقف دونه شيء. يذكرني بأستاذ محمود، الذي كان يعلمنا القرآن في المدرسة؛ أتذَكّر بهجته وقد استظهرت آياتٍ أكثر مما حدد لنا؛ يقول لي وأنا أتلو: «إن القرآن يُحبك، فلا بدّ أن تكون على قدر حبه لك».

---

(١) سورة الأنعام؛ الآية ٨٢.

لم أكن أفهم معنى أن يحبني القرآن، لكن سعادة الأستاذ بي كانت كافية لتجعلني سعيدًا؛ لأعود إلى أمّي أطلب منها أن تُحفِّظني آيات جديدة كثيرة؛ لأعود بها إليه.

يجعلني مساعدَه في الفصل. أجلس جواره على كرسي خصصه لي، وأسمع من الطلبة ما يقرؤون. قال لي: «إن من يحبه القرآن؛ يُصبح دومًا أكبر من زملائه».

يفتح صوتُ رضا القرآنَ في نفسي، كأنّها المرة الأولى التي أسمعه فيها. في الليل، حين لا تنتبه من حواسك إلا أذناك؛ يكون الصوت وحده صانع عواطفك كلها. تمتلئ بأملٍ واسع حين يقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾،[1] وحين يقرأ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.[2]

أعيش معه آيات سورة الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾.[3]

رغم أنّ الله يحكي بضمير الغائب منسوبًا إليهم، وهو يقول: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾؛ إلا أنه ينسب الأمر إلى نفسه حين يقول: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾.

---

(١) سورة يوسف؛ آية ١١٠.

(٢) سورة إبراهيم؛ آية ٤٢.

(٣) سورة الكهف؛ الآيات ١٣، ١٤.

أيُّ أنسٍ حين تسمع الله ينسب الفعل إلى ذاته؟! شعرت، وهو يتلوها؛ أن الحكاية كلها لهم، وهذه الآية لنا، ونحن في هذا المكان. وربطنا ... إذ قاموا.. هو ذات الأمان المشروط الذي أخبرني حسين عنه.

الأمان المرهون بالقيام لله وحده.

أيُّ سرٍ جميلٍ في القرآن، ولماذا غُيِّب عني حتى اكتشفته هنـا في الظلام؟!

أصبح رضا هو الأقرب إليّ في هذا المكان. لا ألقاه إلا وأطلب منه أن يقرأ لي؛ كأنني اكتشفت قرآنًا جديدًا غير الذي تعلمته.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛[1] تختصر بهدوء قصة الحياة كلها. تبدأ بها تريدك أن تصل إليه، تسير بك منذ كنت نطفة، طوال رحلة الاجتماع الإنساني بين هدى وزيغ حتى تنتهي نهاية؛ هي الوجه الآخر لما ابتدأت به. بين أمل الفلاح في أولها، ورهبة العذاب في آخرها؛ تنتهي بما يجمع الأمل الإنساني كله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.[2]

يزول الخوف تدريجيًّا، وتمتلئ نفسي فرحًا خفيًا. وكلما اعتراني هذا الفرح؛ أشعر بحاجة كبيرة أن تكون ليلى أقرب إليّ. أتمنى لو أحدثها، لو أحكي لها ما أجد. أولئك الذين نتذكرهم حين نفرح فرحًا شديدًا أو نخاف، حين يحيط بنا خيرٌ كثير أو يحيق بنا شرٌ كبير؛ هم وحدهم من يحيطون قلوبنا.

---

(١) سورة المؤمنون؛ آية ١.

(٢) سورة المؤمنون؛ آية ١١٨.

في الغياب، تبدو الصور أكبر مما هي عليه عادة. ندرك أين، في نفوسنا؛ يسكن مَن حولنا، ومن نتحمل غيابه، ومن نشعر بنقصٍ لا يمكن لما حولنا شغله. رغم امتلاء نفسي بأشياءَ كثيرةٍ في تلك الأيام؛ إلا أن ليلى بقيت معي كل مساء. أتذكر وجهها الهادئ ويملؤني الحنين إليها، وإن كنت أخشى أن يفسد هذا الحنين الجمال الذي أشعر به. أتذكر رانيا حين أصبحت جزءًا من دعائي، ولم يقو الدعاء على تحملها؛ كيف له بتحمُّل حضور ليلى إذًا؟!

كنت أشعر أنهما طريقان، وبينهما مسافة كبيرة؛ وأتمنى لو أجد جسرًا يربطهما. أن تبقى السعادة التي يُشيعها القرآن في نفسي، والفرح الذي يُزيِّنها حين أكون مع ليلى.

في القرآن لا حرج من الزواج بالمسيحيات.

الزواج هو اشتراك طريقين في الحياة؛ ليكونا طريقًا واحدًا. هو تغيُّر وجهتين ليسيرا معًا لوجهة واحدة. هو بناء واحد يرفعه اثنان. كيف لطريقين، بينهما هذه المسافة؛ أن يصيرا طريقًا واحدًا؟!

تقول ليلى: «إنك تسلك للجنة التي تريدها طريقًا، وأنا أسلُك طريقًا آخر؛ كيف يجتمعان؟».
قلت: «لأنّ الجنة واحدة».
قالت: «لا يكفي أن تكون الغاية واحدة؛ ليصل إليها الجميع من الطرق المختلفة التي يسلكونها. بعض الطرق تقف بنا قبل الوصول، حتى لو كانت الرؤية واضحة في أولها. هناك عقبات لا تظهر إلا إذا انتصف الطريق».

أفكر هل يكفي الفرح الذي أحسّه حين أتصل بأي شيء منها؛ ليكون علامة حب؟ إنها ذات العلامة التي تعلمتها حين كتبت رانيا هذه الكلمة أول مرة في نفسي.

إنها علامة .. وأكثر!

ليس فرحًا مجردًا ذلك الذي أستشعره، بل فرح يجعلني أريد أن أصنع لها الحياة من جديد. أن أكون فرحها إذا حزنت، وأمنها إذا خافت، وقوتها حين تستشرف القوة. أن أصير ابتسامها وضحكها.

أنا أحب ليلى.

هنا في هذا المكان البعيد عنها؛ أدرك ذلك. أصبحت الكلمة أكثر وضوحًا في نفسي. ظهرت أحرفها صافية دون مواربة. انهارت كل الألفاظ التي استعملتها، ولم يَعُدْ لفظٌ منها قادرًا على الصمود. لا الإعجاب ولا المعزة ولا المودة ولا الحنين، لم يبْقَ إلا هذه الكلمة الصغيرة وحدها.

«أنا أحب ليلى».

كأبسط ما تكون الجملة في كتب النحو؛ مبتدأ وجملة فعلية تحكي خبرًا واحدًا محكمًا.

هذه الكلمة الصغيرة كان لها أن تمر بهدوء، لو تعلّق الأمر بغير ليلى، أو لو لم أكن قد سمعت قبل ذلك هذا الحديث: *«من أحب قومًا حُشر معهم»*. وأن المغضوب عليهم، الذين ندعو الله ألا نكون منهم في كل صلاة؛ هم

المسيحيون الذين تنتسب إليهم ليلى. لو لم أتذكر حديث أستاذي أن أهل النار من الكفار الباقين هم اليهود والنصارى.

ألا يمكن أن يكون المفسرون قد أخطأوا في ذلك؟ كيف لكتابٍ مُرسَلٍ لكل البشر أن يفعل شيئًا كهذا؛ أن يُعادي صراحة نصف البشرية التي أُرسل إليها؟ إن الله لم يُصرِّح بأنه قصد اليهود والنصارى؛ حين قال ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وكان قادرًا على ذلك. ما الذي يمنع أن يكون المغضوب عليهم والضالون؛ هم من حادوا عن طريق الله، ولو كانوا من المسلمين أنفسهم؟

كيف يكون الزواج بغير المسلمين مشروعًا، ثم يكون حبهم محرمًا؟!

أيكون زواجًا بغير حب؟ إنه لا يقدم على زواجٍ صعبٍ كهذا، إلا مُحبٌّ مُتيّم. وحتى إن لم يكن كذلك؛ فما من زواج لا يورث حبًّا ما في النفوس، حتى لو لم يُدرَك. الحب الذي ينمو مع العِشْرة، مع السير سويًّا في رحلة الحياة، مع الاحتياج والعطاء.

حين يمرض وتسهر هي قربه؛ ألن يشعُر ساعتها برغبة في أن يهبها حياته التي سهرت لأجلها؟

حين يكْبران سويًّا؛ يسمعان معًا حكي الأيام، يدفع عنها بردها وتُظلِلُهُ من شمسها، تروي ظمأه وتسد حاجته، وتكون أقرب إليه من يده؛ ألن يشعر حينها أن الدنيا كلها صغيرة صغيرة، وأنها هي وحدها كبيرة كبيرة؟

حب العِشْرة لا ندرِكُهُ بسهولة؛ لأننا نعتاده بهدوء، كما نعتاد وجود الشمس الدافئة. لا نشعر بها ما دامت تؤدي كل وظائفها بانتظام دون كلل. حتى إذا عارضتها غيوم؛ أدركنا أنها هي من كان يحمل لنا دفء الحياة دون أن نشعر. قد يكون هذا الحب وحده، أحيانًا؛ هو كل ما بين الأب والابن أو بين الإخوة، حين لا يتعلمون حبًّا آخر سواه؛ لكنه مع ذلك يكفي ليحفظ لهم اتساق حياتهم، برغم أن الكشف عنه واستخراجه؛ يجعل الحياة أكثر جمالًا. كلما تعددت صور الحب في علاقات الإنسان؛ اتضحت له معانيه والجمال الكامن فيه، كالذي يعرف أنواع الطعام الكثيرة؛ فيعرف فضل بعضها على بعض. أما حين لا نعرف من الحب إلا صورة واحدة، ومن الطعام إلا طعمًا واحدًا، ننسخه في أي شيء آخر؛ فإننا نفقد أسرارًا كثيرة يريد الله أن يطلعنا عليها بهذا التعدد الذي جبله في هذه الأشياء.

مهما كان عمر الزواج، فلا بد أن تكون فيه هذه الشمس الدافئة التي تسمى -ولو على المجاز- حبًّا، وحينها لا يمكن أن يكون هذا الحب مُحرَّمًا؛ لأن المؤدي إليه ليس محرمًا أبدًا.

*****

أمضينا شهرًا في السجن الذي انتهينا إليه. كانت أكثر الأيام تنقضي في دروس كثيرة في التفسير والحديث والتاريخ. نجتمع ويتولى الدرس أكبر الحضور سنًّا في العادة. دروس التفسير كانت الأحب إليّ. المعرفة الجديدة تصنع حياة جديدة، وحين تتعلق المعرفة بنص القرآن؛ تُصبح هذه الحياة أرحب من أي حياة أخرى، وأكثر إشراقًا.

في هذه الدروس تعلمت كيف أقرأ القرآن، كيف أفهم معاني ألفاظه وأتعامل معها. يتحول القرآن إلى نصوص ثرية مليئة بالمعاني حين تتغيَّر نظرتنا إليه؛ من كتاب تَعَبُّد بالقراءة، إلى كتاب نقرأ فيه إرادة الله. هذه الإرادة المبثوثة في كل حرف من حروفه، حتى ليحملني الحرف الواحد إلى معانٍ دقيقة لا يقوم بها حرف آخر سواه. إرادة الله بثها في حروف القرآن كما بثها في الكون حولنا. حين نقرأ الكون، فإننا نقرأ أيضًا إرادة الله؛ نقرأ في الكون أوامر الله ورغباته الجليلة. الكون السائر بانتظامٍ متزنٍ لا يهتز. الكون الذي لا تقوم فيه حركة بغير مصلحة مركبة للبشر. الكون الذي تقوم كل مكوناته على الجمال المطلق. يريد الله لفت أنظارنا إلى هذه الأشياء الجميلة؛ فيُكثِرُ القسم بها في نصوص القرآن. حين يُقسم الله بالشمس، فهو يريد إخبارنا أن وراءها أسرارًا تستحق منا التوقف، وليست مجرد ضوء دافئ معتاد، نراه كل يوم. إن العظيم ليس في حاجة للقسم بشيء آخر سواه، لكنه أقسم بالشمس وبالقمر وبالفجر وبالضحى وبالنهار وبالليل. يختار، حين يقسم بالصبح؛ لحظة واحدة فيه، فيقول: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.[1] يختار لهذه اللحظة أجمل تعبير تصل به إلى نفسك، حتى ليتحول الصبح معك بعد هذه الآية؛ إلى كل معاني الحياة الحية، لتقول حين تسمعها: «أيها الصبح؛ إني أحبك حين تتنفس».

هذا التفتق الجديد لمعاني القرآن في نفسي؛ جعلني أعيد النظر في كل المفردات التي اكتسبتها قبل ذلك. كانت معاني الألفاظ تتغير دون أن أشعر. ألحظ ذلك في إدراكي لأشياء كالشمس والقمر والنهار؛ فلم أعد أراها كما كنت أفعل. تطوي هذه الأشياء في نفسي حديثًا خاصًّا: أبي وأمي وإخوتي

(١) سورة التكوير؛ آية ١٨.

وأصدقائي وليلى، الحياة والموت والسعادة والشقاء، الحنين والشوق والرضا؛ كل ذلك اكتسى معانيَ أخرى أوسع. المعاني الجديدة أحسها أكثر وضوحًا. كان إحساسي بهذه المعاني الجديدة يشبه إحساسي حين ارتديت نظارتي لأول مرة؛ لم أكن أشعر قبلها أن في الحياة أشياءً لا أراها بوضوح. في ذلك اليوم جرّبت السير في كل الطرق التي أعرفها. كنت أطيل النظر إلى كل ركن في غرفتي، وأنا أضع عدساتي الجديدة أمام عيني. الحدود الحادة المرسومة للأشياء تجعلها تبدو ناطقةً. أدركت يومها أنه لا يكفي جنس الرؤية، لتصل إلى وعينا الأشياءُ كما هي. فنحن نرى الأشياء عادةً كما تُطيق عيوننا، لا كما تبدو هي في الحقيقة.

لا يمكنني الآن التخلّي عن عدساتي. أستغرب الصور التي أراها في غيابها. الأشياء القريبة فقط هي ما يُمكنني رؤيته دون عدسات.

*****

عرفتُ حسين عن قرب في هذا السجن، وعرفت زملاءه جميعًا. يكفي أن أصافح أيَّ وجهَ منهم في يومي؛ ليغمرني هدوء واطمئنان. لا أعرف إن كان السر هو اجتماعنا في هذا المكان أم أن هناك سرًّا آخر؛ سرًّا يكمُن فيهم. وجودي بينهم جعلني مُتصالحًا مع كل شيء حولي، حتى مع قلة الماء، وضيق المكان، وآلام جسدي من برودة الأرض التي ننام عليها.

أسمع من رضا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾؛[1] قلت له: «أُحسُّ أن هذا أعظم نعيم في الجنة بعد رؤية الله».

---

(١) سورة الحجر؛ آية ٤٧.

قال: «ولِمَ؟».

قلت: «لو دخل الناس الجنة بذات نفوسهم التي عانت الغلّ والتحاسُد؛ لما شعروا بأي نعيم. أعظم النعيم يُصبح ألمًا عظيمًا حين يُشاركنا في تذوقه شر نفوسنا، وأعظم الشقاء يُصبح نعيمًا إذا زال هذا الشر منها».

أُدرِكُ الآن لماذا أشعر بالسعادة هنا. فهؤلاء يستحيل أن تتمكن من قلوبهم المشاحنة والغلّ. وإن كانت فيهم قبل ذلك؛ فهذه الجدران كافية لتخفيها إن لم تَمْحُها.

في السجن تصبح النفوس صافية خفيفة. إذ لم تعد تشغلها أحداث الدنيا. في السجن تضيق الحياة حتى تعود إلى صورتها البسيطة الأولى. الأيام المرتبطة بنمو اليوم تبدأ معه وتنتهي بانتهائه. لا يشغلك من أمور الحياة المعتادة شيء، ولا حتى طعامك؛ رغم أنه لا يكون في العادة شيئًا جيدًا، إلا أنه يأتي دائمًا في أوقاتٍ ثابتة منتظمة، وسرعان ما تعتاد صورته؛ فلا تشعر بغرابته.

إنها ذات النفوس التي ستكون في الجنة، النفوس التي يتم بها النعيم هناك؛ حيث لا سعي ولا تدافُع على الوصول.

حين تحط كل الرحال؛

ويستريح الحادون؛

حين تسلم ملائكة الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾.[1]

---

(١) سورة الزمر؛ آية ٧٣.

(١٥)

كان أول مكان شعرت برغبة في زيارته، حين خرجنا من السجن؛ هو جامع عمرو بن العاص. ذهبت أنا وليلى إلى هناك. قضينا اليوم في المتحف القبطي والكنيسة المعلقة، ثم انتهينا إلى جامع عمرو.

أردتُ أن أرى أول أرضٍ صلى فيها المسلمون في مصر. أول حرفٍ في نسخة الإسلام التي بقيت هنا. أفرز الإسلام نسخًا كثيرة في البلاد التي دخلها، ربما لأنه لم يكن وقتها قائمة أفعال ونواه، بل كان نظامًا عامًّا. وكل حضارة أطّرت نفسها على هذا النظام. لم يحول الإسلام بلاد فارس والعراق والشام ومصر والمغرب إلى مُستنسخات من نُسخته التي تشكلت في مكة. في المتحف شعرت أن أدوات الفن القبطي تُشبه أدوات الفن الإسلامي الذي عرفناه بعد ذلك في مصر. لا يمكنني معرفة أيهما تأثر بالآخر إلا من تواريخ تلك الأعمال. لا تظهر الفروق إلا في المفردات الصغيرة التي تتعلق بالدين نفسه. أما وحدات الزخرفة الصغيرة، والمنمنمات على تيجان الأعمدة، والألوان المستخدمة في صباغة السجاد أو طلاء الجدران؛ فإن كل ذلك لم يختلف منه شيء. الزجاج الملون المتداخل في نوافذ الجص، التي ملأت جدران المساجد الإسلامية ونوافذها؛ والمصابيح والثريات المنقوشة، كل ذلك أجد له أصولًا كثيرة هنا.

المعرفة الإنسانية واحدة، كما أنّ الألم الإنساني واحد أيضًا. ألم الجرح في العصر البابلي هو ذاته ألم الجرح في الحروب الحديثة. والشوق الذي عانى منه قيس هو ذات الشوق الذي عانى منه روميو. لا تختلف المعرفة ولا الآلام بطول السنين، ولا باختلاف الأديان.

في فترات الطفرات المعرفية الكبيرة؛ تحتاج الإنسانية إلى مَن يحمل عبء هذه الطفرة، ويستوعب اتساعها المفاجئ، ويكون قادرًا على الاستفادة منها في عمارة الحياة. يَكِلُ الله المعرفة الإنسانية للقادرين على تحمُّلها. وحينما أُسندت المعرفة الإنسانية إلى المسلمين، في الفترة التي حكموا فيها العالم؛ كانوا وحدهم القادرين في ذلك الوقت على تحمل هذا العبء والقيام به بانفتاح ومرونة. لم يكن الشرق ولا كنائس أوروبا المغلقة حينها أهلًا لتحمل الإرث المعرفي الإنساني.

تحمَّله المسلمون وقاموا بتبعاته، ثم لمّا فقدوا قدرتهم على ذلك؛ تحمَّله سواهُم.

في كل مراحل انتقال المعرفة الإنسانية وتطورها؛ تكتسب كثيرًا من صفات الذين حملوها. يمكنك دون علم مسبقٍ بالعصر الذي شهد ميلاد معرفةٍ ما؛ أن تتنبأ بذلك العصر حين تُحلل خصائصها.

المعارف التي وُلدت في الصين، والمعارف التي ولدت في مصر القديمة، والتي ولدت في الشرق العربي، والتي ولدت في أوروبا الناهضة، أو تلك التي ولدت في العالم الجديد بعد ذلك؛ لا يمكن أن يتطابق اثنان منها أبدًا، لا في فلسفة العلوم ولا في تطبيقاتها.

في جامع عمرو أول كلمات نسخة الإسلام الموجودة في مصر. يقع الجامع شرقي النيل؛ في موقع فسطاط عمرو، الذي تركه حين رحل إلى الإسكندرية، ولم ينقضه لأن يمامتين كانتا قد عرشتا فيه كما تقول الرواية. وذلك قرب أكبر حصن كان فتحه فتحًا لمصر وشمال إفريقيا، وبالقرب من كنيسة أقيمت على أطلال معبد روماني قديم.

أول كلمة كتبها الإسلام هنا، كانت نسخة تامة في اكتمال حسنها. فيها محاولة الاقتراب من الأصل؛ حين قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: «لا تجعل بيني وبين المسلمين بحرًا»، ورغم طول المسافة بين المدينة ومصر، الذي يجعل عرض النهر صغيرًا لا قيمة له؛ اختار عمرو لعاصمته شرق النهر، عاصمة فيها حِلم وسعة وشموخ.

وحول المسجد بدأت مدينة الفسطاط تنمو وتتسع؛ ككل العواصم التي بناها المسلمون في بغداد والبصرة ثم في القيروان. كان المسجد أول بناء، وهو المركز الذي تولد الحياة حوله بعد ذلك، كما تنتهي إليه.

في جامع عمرو، أكون أكثر صفاءً وراحة من مساجد أخرى كثيرة. أشعر أن السماء قريبة منه. اتساعه وهدوؤه وبساطة معماره؛ كل ذلك يشيع في نفسي إحساسًا بالأمان، ويحضرني فيه قول الله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾.[1]

---

(١) سورة التوبة؛ آية ١٠٨.

إن لم يكن ذلك في المسجد الذي سمع هذه الرسالة قبل سواه، المسجد الذي شهد ميلاد فقه الشافعي الجديد حين نزل مصر، والمسجد الذي باع فيه العز بن عبد السلام ملوك مصر، لأنهم مماليك لا يجوز لهم أن يحكموا الأحرار، وجعل ثمنهم في الجيش الذي حارب به المصريون المغول. إن لم يكن في ذلك المسجد؛ فأين يتحقق؟

ذكرت لليلى ما أجده في هذا المكان، حين خرجت إليها.

قالت: «أتعرف؛ أشعر هنا أني أقرب للجنة. لا بد أن ملائكةً كثيرة تجتمع هنا. كل طرق الجنة التي عرفها البشر تجتمع هنا. حتى ولو كان، كما يدعي البشر؛ واحدٌ فقط هو الصحيح، فلا بد أن ملائكة هذا الواحد هنا أيضًا».
سكتت لحظة ثم سألت: «لماذا تتعدد طرق الجنة؟».
- لأنها كبيرة. يلزمها أن نتعب لأجلها ونحن نختار الطريق الذي نقطعه إليها.
- لكنها مغامرة! مغامرة كبيرة أن تختار! لا تملك هذا الحق إلا مرة واحدة؛ كالزواج عندنا.
سكتت لحظة، ثم سألت: «كيف سيحاسبنا الله؟».
- لم أفهم!
- إن الله لن يحاسبنا من نماذج إجابة مسبقة. ليست الحياة أسئلة يجاب عنها بكلمة واحدة فقط. الحياة نصٌ طويل؛ قد نجيد مقدمته ثم يهرب منا متنه، أو يكون متنه جيدًا لكن مُقدمته سيئة.
- المهم في هذا النص هو خاتمته وخلاصته.

- مغامرة! نص بهذا الطول مغامرة كبيرة أن تصل إلى خاتمته.

على سلم المحطة، قبل أن نرحل؛ وقفت تنظر إلى المكان كله، وهي تقول: «أليست كل الملائكة هنا؟ لنتمنّ إذًا أمنية؛ لا بد أنها ستصل إلى السماء».

احتوانا الصمت حتى وصل القطار إلى حيثُ ستنزل؛ فسألتني: «ماذا تمنيْتَ؟».

قلت: «أن يُقبلَ دعائي».

(١٦)

حتى ذلك الوقت؛ لم أكن قد ذكرت اسم ليلى صريحًا في دعائي. أخاف أن يردُّه الدعاء كما فعل مع رانيا من قبل، ولا أجرؤ على اختبار ذلك. لا أريد أن أفقد أيًّا منهما.

أدعو: «اللهم لا تُعلّق قلبي بما ليس لي»، لكن لساني يسبقني: «واجعل لي فيما أحبّ نصيبًا».

تسألني نفسي: «ولو لم يكن صالحًا لك؟!».

فأزيد: «واجعله يا رب صالحًا لي».

كنت أرتاح لهذه الصيغة أول الأمر. أدعو بها على تخوّفٍ ورجاء، ومع الوقت تكبُر ليلى في نفسي أكثر، وتصغُر أمامها هذه العبارات الصامتة.

ما في نفسي لا يحتمل الدوران حوله بعباراتٍ لا تقوم بحقِّه كاملًا. يختنق الحب حين لا تستطيع اللغة الإفصاح بمكنونه حتى مع الله.

لماذا أُخفي ما في نفسي بعباراتٍ خرساء، والله يعلم الحقيقة كلها؟ يعلم أني أحب ليلى.

«ليس على الأرض مَن شَهِد كيف ولدته أمه، لكني شهدت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبة نفسي». الله يعلم أنها من مرَّت بيدها على أركاني المتهدِّمة، فأعانتها الأقدار على إقامتي وبنائي.

لن يغضب مني حين أخبره أني أحب ليلى.

اللهم أنت تعلم حقيقة ما في نفسي. تعلم كيف كانت نفسي قبل لقُياها، وتعلم كيف أضحت حين استضاءت بها. تعلم أني ما سعيت لذلك كله، بل كنت أتحاشاه، وأبتعد قدر ما أطيق، وأعرف أنها أبعد من أن تكون.

لكنها كانت،

وكانت نفسي بها،

بمشيئتك وحدك،

«خلقت الحب ثم جرى علينا،

والمشيئة لكْ،

وأنت مقلب القلب الذي؛

إن حاد عنك هلكْ،

فإن تسأله عن ذنب؛

فعن عفو الرضا سألك».[1]

أليست حياتي كلّها لك؟ اجعلني ألقاك وقد زينتها بها؛ ستكون رحلتي أجمل إذ أصحبها معي سائرين إليك.

---

(١) من قصيدة للشاعر المصري أحمد بخيت.

حين نلقاك سويًا،
أنا وهي؛
«أنا بفؤادي الخرب؛
الذي عمرته بسناكْ؛
وليلاي التي جاءت؛
إلى الدنيا لكي تلقاكْ،
أما علمتني الأسماء،
ليلى أجمل الأسماء،
وأنقى ضحكة في القلب؛
أتقى بها نهنهات بكاء،
وآخر فرصةٍ للأرض؛
كي تجد السماء...
سماء».[1]

بحقك وقد علمتني الدعاء وملأت به قلبي، وبحق أبي آدم الذي عَرَفَكَ فأحبك وتُبت عليه حين عصاك فتاب، وبحق الشمس الجميلة التي أقسمت بها، وبحق القمر، وبحق النهار، وبحق نفسي.

ألم تُقسم بنفسي؟ ألستَ أنت من سواها، وألهمها فجورها وتقواها؛ ألهمها أن تحب وأن تكره، أن تسعد وأن تحزن، أن ترضى وأن تسخط.
وأن تحب ليلى،

(١) من قصيدة للشاعر المصري أحمد بخيت.

البعيدة بُعد السماء،
القريبة قُرب الروح؟

هب هذه النفس يا رب رُشدها. اهدها سُبلها واملأها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، واجمع بينها وبين مَن تحُب، جمعًا يُسعدها ويرضيك...
جمع تمامٍ واكتمال...
يا الله.

(١٧)

في امتحان التوحيد؛ يسألني الأستاذ: «من أفضل؛ آدم أم الملائكة؟».
أجيبه أن الملائكة حتمًا أفضل؛ لأنهم لم يخطئوا أبدًا.
قال: «ولماذا إذًا سجدوا لآدم، وهم أفضل منه؟».
قلت: «لكن آدم عصى!».
قال: «وتاب».
قلت: «وأخرج من الجنة!».
قال: «ليعود إليها خالدًا فيها. الخروج من الجنة لا يعني الإلقاء إلى النار. آدم والشيطان كلاهما خرج من الجنة؛ وعاد إليها آدم ولم يعُد الشيطان. عاد آدم لأنه أحب الجنة، وأراد أن يعود إليها».

أتذكّر ذلك وأنا أسير وحدي بعد مغادرتي حسين. للمرة الأولى أطلعه على ما في نفسي نحو ليلى. كنت أعرف ما سيقول، لكني أردت أن أحكي لأي أحد. أردت أن يخرج الأمر من نفسي لغةً منطوقة، حتى إن لم أجد لديه ما يريحني.

قال: «أقول وتسمع رأيي».
قلت: «نعم».

سأل: «لأي شيء نتزوج؟».
قلت: «لتكون حياتنا أجمل».
- فقط؟!
- فقط.
- وبناء بيت، وتربية أولاد، وتنشئة جيلٍ جديدٍ صالح؟!
- ألا يجعل هذا حياتنا أجمل؟!
- يجعلها أصعب. ربما لا تكون أجمل، لكنه واجب الإنسانية.
- هل نتزوج قضاءً لواجب الإنسانية؟ ماذا تستفيد الإنسانية لو بنيت بيتًا وربيت أولادًا لم يُفلح منهم أحد؟ ولم يدرك أحد منهم ما تعنيه هذه الإنسانية؟!
- لسنا مطالبين بالبحث في ذلك. دعني أسألك سؤالًا آخر: هل كل ما يجعل حياتنا أجمل يلزمنا عمله؟ ألا تجعل الذنوب حياتنا أجمل، ألا تُكثِّر السرقة أموالنا، ألا تُسعدنا مصاحبة النساء؟
- ليس هذا جميلًا.
- في نظرك؟!
- بل في تعريف الجميل ذاته.
- وما تعريفه فيما ترى؟
- الاتزان.
- لم أفهم.
- الجمال هو الاتزان، وهو الحرية. المال المسروق يُخلُّ باتزان الحياة. العلاقات المختلة بين الرجال والنساء تخل باتزان الحياة، لذلك تفقدها جمالها. خلق الله

الكون كله جميلًا موزونًا بقدَر. وحين طالته يدنا دون وعيٍ؛ اختل توازنه، فبدأ يفقد جماله.

حين يتناسب كل شيء حولك؛ تصبح الدنيا جميلة. نحن نتزوج لنصل لهذا الاتزان؛ لتكتمل كُرتنا في انطلاقها إلى غايتها. إن نصف الكرة يعجز عن الدوران وحده.

سأل: «وحين تكتمل الكرة بنصف لا يناسبها؟!».

قلت: «تتعثر؛ لذلك نبحث عن نصفٍ يُماثلها».

قال: «وإذ لم نجد؟».

قلت: «نحاول أن نقترب».

فسأل: «وليلى نصف كرتك الذي يُماثلك؟!».

قلت: «قد يكون النصف الصحيح بعيدًا، أو لا نستطيع الوصول إليه؛ وهو ما يخالف ناموس الجمال الذي قام عليه الكون؛ أتعرف لماذا؟ لأن هذه المسافة البعيدة وهذا الحاجز الكبير ليس من صنع الله؛ بل من صنعنا نحن البشر. الله قال إنه خلق لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكُن إليها. وحدهن اللائي خلقهن الله من نفوسنا؛ هن من جعل الله المودة معهُن جعلًا. أما سواهُن، فنحن من نحاول إيجادها، فننجح أو نخفق».

- الله خلق حواء من آدم، هذا معنى الآية.

- قال من أنفسكم، ولم يقل من نفس أبيكم. من نفسي أنا خُلِقَت امرأة واحدة، وأنا أبحث عنها. كلنا يبحث عنها. أحيانًا نوفَّق، وهو قليل؛ وحينها يكون السكون والمودة والاكتمال والتماهي. أو نُقارِب؛ فيجتمع فيه سكونٌ ومشقة. أو نبتعد كثيرًا، لذلك شُرع الطلاق، حتى يُغني الله كلًا من سعته. لم

يعتب الله على أي الطرفين. لم يقل إنه سيهب المظلوم خيرًا ويعاقب المخطئ؛ المسئول عن انتهاء علاقة الزواج. لم يُسمِّ الله أحدًا مخطئًا. بل وعد أنه سيُغني الجميع؛ لأن الجميع يبحثون عن الاكتمال، وقد لا يفلحون.

- لو كان كما تقول، لما تزوج أحد.
- بل لاكتمل كلّ من تزوج.
- كأنك لست كغيرك من الناس؟
- ولا أنا كالملائكة!
- وتعرف الخطيئة الإنسانية وتقدر لها قدرها!
- وأعوذ بالله منها، وأتحاماها.

* * * * *

تميّز آدم على الملائكة بقدرته على الاختيار. لم يُخير الله الملائكة في العبادة، لكن آدم خُيِّر واختار، وحين عصى، أدرك واعترف أنه عصى؛ فحزن وتاب. عرف ذلك بعقله؛ بما علّمه الله حين فاخر به الملائكة: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾.[1]

اللغة سبيل العقل، وليس للأشياء معانٍ دون أسمائها التي تقع عليها. لذلك كان اختبار الملائكة بها، بهذه الأسماء؛ بلغة المعرفة. ونجاح آدم في ذلك كان وحده التبرير الإلهي للملائكة، باستحقاقه للسجود.

---

(١) سورة البقرة؛ آية ٣٣.

كبر آدم في السماء بالعقل الذي مُنح له. هذا العقل الذي وكلت إليه اختياراتنا، وارتبطت به مصائرنا. العقل الذي لا يتحمل عنا ألم الاختيارات. يوهمنا بقوته وتحكمه، يرتب ويقدم ويؤخر، وحين نختار شيئًا لا نعرضه عليه؛ يكون من حقه أن يغضب. حين نختار لأننا نحب؛ يقول إنّ القلب ليس أهلًا لتحديد المصائر، ليس مسؤولًا عنها ولم يخلق لها. حين نختار لأننا نتألم؛ يقول إن الألم مهما كان ليس مسوغًا للتحكم في الاختيار. كل تلك أبواب تؤدي إليه ومنه وحده حيث يصدُر القول الأخير، إذ هو وحده القادر على القياس والحساب.

لكنه برغم ذلك لا يتحمل أيًا من نتائج هذه الاختيارات. فحين نتألم، لأننا تبعناه في أمرٍ؛ لا نجد لديه إلا مواساةً نظرية ميتة.

يعرف العقل كل شيء، إلا أن يدرك معني الألم أو يستشعره.

مع ليلى يقول العقل: «لا تقترب منها؛ لأنها ليست على دينك. بأي دينٍ يدينُ أبناؤك حين يكونون؟ بأي رسالةٍ يلقون الله؟ بأي صلاةٍ تدعون إذا لجأتم إلى الله في حال؟ بأي عيدٍ وبأي صيامٍ وبأي ذكر؟».
ويقول القلب: «إن هي إلا أسماءٌ سميتموها. الله واحدٌ مهما اختلفت إليه الطرق. يسمع منا جميعًا، ويجيبنا جميعًا».
وتقول نفسي: «أنت تحب الله، وتحب ليلى، وتبذُلني أنا في سبيلهما؛ فلا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها».
يقول العقل: «ليس أعلى منها إلا الله».
ويسأل القلب: «وليلى؟!».

- لماذا تُقارِن بينهما وهما لا يُقارنان؟! الله أكبر من كل مقارنة في حياتنا. إن كُل اختيارٍ نصِلُ به إليه هو اختيار صحيح.

يقول العقل: «حين تُريد أن تصل إلى الله؛ اسلك سبيله الذي عَيَّنَهُ، لا سُبُل هواك».

- وكيف أجد سبيله؟

يا الله..

أريد أن أكون معك.

(١٨)

كنت وحيدة الروح لا أعرفك ولا تعرفني، وأنا أجوب الأرض أبحث عنك. طيفٌ في نفسي لا أدرك حدوده، أحسّه ولا أراه؛ أعلم يقينًا أنه موجودٌ وقريب، وأنني سأعثر عليه يومًا ما، وأشرق بنوره على هذا العالم، مثل نجمة تكشف الجمال فيه.

كنتَ في نفسي..

قديمًا قدمها، حيًا حياتها، مُستوحِشًا غُربتك فيها. وكنتُ أعلم ذلك، وأجِدُّ في البحث عنك ليستريح طيفك. في كل عين وفي كل صوتٍ، في كل طيفٍ وفي كل ضوءٍ. في كل عابرٍ أراه أُطلِعُ طيفك عليه؛ فيستوحشه ولا يعرفه.

كنتَ في نفسي..

أُحِسُّ حزنك فأواسيك، وأتخيلك سعيدًا فأشاركك سعادتك، وأراك عظيمًا فأفاخر بك.

كنتَ في نفسي..

طفلًا أُدلّلـه، ورجلًا كاملًا أحتمي به..

وكنتَ قريبًا مني..

أراك وتراني، أعرفك وتعرفني. تُزيِّنُ خُطوك إذا علمت أني أرقُبه، وتتحسس حديثك وصوتك إذا أدركت في السامعين أذني؛ فأُحِسُّ ذلك وأعرفه، وأفرح به وأخشاه.

أحس الطيف يعرفك،
يفرح بك ولا يستوحشك،
يخبرني أنه أنت أنت؛
فيزيد فرحي ويزيد خوفي،
أضيء بك،
لكني أبتعد،
وتقترب؛
أكثر فأكثر؛
لأُدرِك العلامة حين يكتمل ضوئي،
وأكون النجمة .. بك.

تقول إنك عرفت معي جمال الكون.
وأنا أقولك لك: «سرُّ ذلك فيك، لا فيَّ. أنت أضأت نفسي؛ فرأيت بها الجمال. رأينا الجمال معًا. وحدك لم تكن لتراه، ووحدي لم أكن لأحس وجوده».

عرفتني وعرفتك.

وعرفتَ العالم بي وعرفتُ العالم بك. وكنتَ وكنتُ. نقترب ببطء وخوف، حتى خشينا أن نقترب أكثر فنصطدم؛ لنتوقف دون اتفاقٍ منا.

كشجرتين تعانقتا بفروعهما. تشابكت جذورهما وظلت ساقاهما على البُعد. ومن عناق فروعهما الظل والبرَد، وفي ابتعاد ساقيهما الشوق والحنين.

لو تُطوَى الأرض لهما!
لو يملكان حراكًا!
لو تدبّ فيهما الحياة!
لو يموت فيهما الخوف!
لو تجرأتَ أكثر!
أحببتني فكرة وأحببتُكَ أفكارًا،
أحببتني روحًا وأحببتُك سِدرة أرواح،
أحببتني إنسانًا وأحببتُك مَلَكًا،
أحببتني امرأة، وأحببتُك رجلًا.

لكن الجنة حالت دونك ودوني. جنتك وجنتي. إجابتك وإجابتي. كانت لنا نفس الأسئلة، ولم تكن لنا ذات الإجابات.

هي هي الجنة، لكنك تسلُك لها طريقًا غير الطريق الذي أسير فيه.

قلتُ لك: «نسير معًا كلٌّ في طريقه».
قلتَ: «لا يجتمعان».
قلتُ: «نحاول».

قلتَ: «لا يمكن».

الآن أدرك أننا ما دمنا نُريد الجنة؛ فسنصل إليها. سنهتدي للطريق حين نبدأ المسير، حتى لو بدأنا في طريقٍ خاطئٍ.

ستُناديناَ الجنة.
ستبحث هي عنا، كما بحثتُ عنك وبحثتَ عني.
ستعرفنا، كما عرفتُك وعرفتَني.
وستسير إلينا، كما نسير إليها.
لنصل، ونعانقها.
عناق المشتاق الذي أنهكه السير.
ونستضيء بها.
ضوء الفجر الذي اشتاق النهار.
ونزداد بها إشراقًا،
كما زدتُ بك.. إشراقًا.

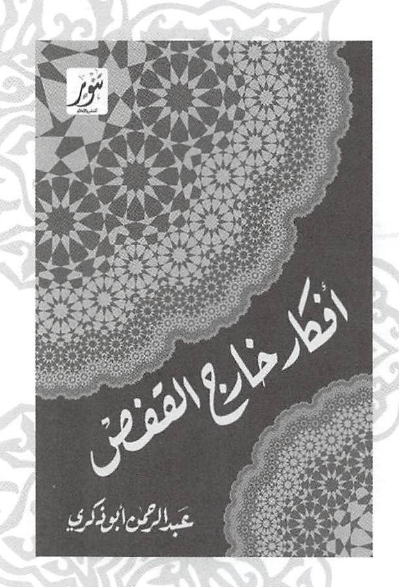
تمت

معًا؛
سنطوف
حول العرش
عند إقامة الميزان،
وملء جيوبنا ذنب
وملء قلوبنا الإيمان،
فيشملنا لأجل الحب
عفو الحاكِم الدّيان.

أفكار خارج القفص

صدر حديثاً | كتاب جديد

هذا الكتاب ليس للمتعة الذهنيّة المجرّدة، وليس الغرض منه نيل رضا القارئ وموافقته وتصفيقه واستحسانه؛ بل الغرض منه تعليمه التفكُر، ومساعدته على تكوين ملكة للنظر والنقد والحكم. كل ذلك بطريقة غير مباشرة. فحين يُعاين القارئ المتفحّص منهج النظر ذاته وهو يُفكك الفكر السياسي ثم يُقْرأ به الأدب ثم تناقش به بعض مسائل العقيدة والفلسفة ثم يتشكّل به دُعاء يستلهم سير الأنبياء؛ فإنه سيُدرك -ولو بشكل غير واعٍ- وحدة المعارف الإنسانيّة، ومن ثم أهميّة وحدة منهج النظر والرؤية الكونيّة الحاكمة والمهيمنة على التناول. وسيُدرك أيضًا أن الفصل المصطنع بين العلوم والمعارف الإنسانية مجُرّد فصل مدرسي إجرائي لا قيمة له، ولا يتم تكريسه إلا لتوثين حقل من المعارف أو الافتراضات التي بُنيت عليها بعض النظريّات "العلميّة".



عبدالرحمن أبو ذكري

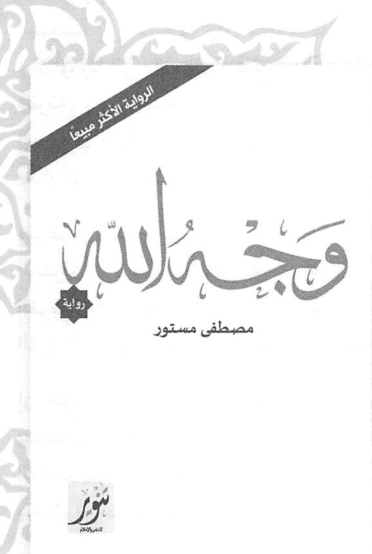
أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلد بالقاهرة، وتخرّج في كلية الآداب بجامعتها. نشر عدة مقالات وأوراقًا بحثية في موضوعاتٍ متنوعة؛ تصُب جميعًا في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مُهتمٌ بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتدادًا لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشّنها سيّد قطب، ورسّخها علي عزت بيغوفيتش، وأثراها عبد الوهاب المسيري. له عدة كتب وترجمات في طريقها للطبع، منها: «طير بلا أجنحة»، و«في أصول التصوّر الإسلامي».

وجه اللّه (رواية)

صدر حديثاً | الرواية الأكثر مبيعًا

تناقش هذه المعزوفة الصوفيّة، وبعُمق؛ أعقد الأسئلة الوجوديّة وأكثرها بداهة وإلحاحًا في لُغة سهلة قريبة، بعيدة عن إبهام الحداثيين وتخبُّطهم. فيتتبّع الفنان الحركة الوجدانيّة لشخوصه الحائرة في ذكاء، يغوص في أعماقهم ولا يفرض عليهم يقينه بشكل خطابيّ استعراضيّ، بل يمضي مع كل منهم في طريقه؛ ليكشف ملتقى تلك الطرق. يقترب ويبتعد؛ يُشكّل جدليّة اجتماعيّة معرفيّة شعوريّة فريدة. جدليّة غزَلَها في بساطةٍ من خيوط حرير فارسي متين، لتستعيد الشكل الكلاسيكي للرواية في قالب مُغرق في المحليّة. في هذه الرواية لا يستعيد مستور قالب الرواية فحسب، بل يستعيد معه الإنسان، بإعادة تعريف الحُبّ. هذه رواية عن الشك واليقين، والشغف والحيرة، والحب والتيه؛ هذه قصّة الإنسان.

مصطفى مستور



روائي إيراني ولد في مدينة الأهواز. نشر قصصًا قصيرة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٩، ثم جمعها في مجموعة لم تلق إقبالاً يُذكر. ثم نشر هذه الرواية: «وجه اللّه» عام ٢٠٠١، فحققت نجاحًا ساحقًا واختيرت كأفضل رواية في إيران عامي ٢٠٠١ و ٢٠٠٢، ونالت جائزة القلم الذهبي، وطُبعت أربعًا وثلاثين طبعة خلال عشر سنوات. ثم نشرَ مجموعتين قصصيّتين ناجحتين قبل أن ينشُر روايته الثانية، عام ٢٠٠٥؛ والتي لاقت إقبالاً واسعًا. وفي عام ٢٠٠٦ نفدت مجموعته القصصيّة الجديدة فور طباعتها بسبب الإقبال منقطع النظير. وحين نُشرت روايته الثالثة عام ٢٠٠٩؛ كانت أكثر الكُتب مبيعًا في معرض طهران الدولي للكتاب. ثمّ طُبعت مجموعته القصصيّة الأخيرة، عام ٢٠١٠؛ ست طبعات خلال ستّة أشهر. ليُسطّر مستور اسمه كواحد من أهمّ عشرة روائيين وأكثرهم شعبيّة خلال ثمانين عامًا هي عُمر الأدب الروائي الإيراني الحديث.

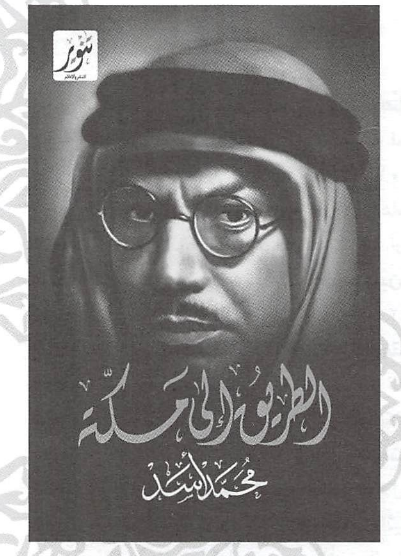
الطريق إلى مكة

قريباً

سيرة عقل يبحث عن الإيمان

هذه بعض فصول سيرة رحالة يهودي أوروبي من أصل نمسوي. جاب العالم العربي والإسلامي في مطلع القرن العشرين بحثًا عن الذات، أو بحثًا عن الله. فقد وجد الله حين وجد ذاته. حين وجد ذاته الفطريّة الأصليّة، وليست تلك التي اكتسبها بالتنشئة.

إن هذا الكتاب ليس سردًا لوقائع رحلة حج إلى البيت الحرام، ولا حتى تأمُّلاً في رمزيّتها وروحانيتها وفلسفتها، بل هي بعض معالم رحلة البحث التي قطعها ليوبولد فايس ليصل إلى الله، أو ليصل إلى محمد أسد؛ سيّان. إذ أن ليوبولد فايس قد صار محمد أسد حين عبَّد نفسه لله مُختارًا، عن وعي وإدراك وإرادة.



إن الطريق إلى مكّة رمزٌ للرحلة الشاقة التي قطعها الكاتب من اليهودية إلى الإسلام، ومن ليوبولد فايس إلى محمد أسد، ومن أوروبا إلى مكة. إنها وقائع رحلة عودة قلبٍ إلى حقيقة فطرته، رحلة انسلخ فيها فايس رويدًا رويدًا من كل موروثه الحضاري والثقافي، ليُقبل على عالم جديد، ويكتشفه بلا مُعطياتٍ مُسبقةٍ تشوِّش عليه.

وبرغم أن أسد قد نشر كتابه هذا في مطلع خمسينات القرن العشرين، باللغة الإنكليزية؛ موجهًا بالأصل للقاريء الغربي، إلا أن الكتاب قد صار برغم ذلك أحد أهم كلاسيكيات القرن العشرين، فهو عملٌ لا تبلى جدّته، ولا تُملّ قراءته.

إن أحوج الناس لقراءة هذا الكتاب اليوم هم الجمهور الذين لم يستهدفهم أسد: جماهير العرب والمسلمين. وفي طيات الكتاب يكمُن ما يكفي من الأسباب، التي يلزمك تلمُّسها بنفسك قارئنا العزيز.

طير بلا أجنحة

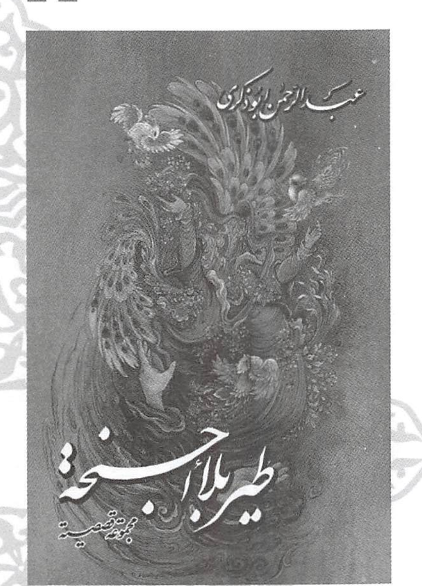
قريباً | مجموعة قصصية

"

كان الناقد والأديب المصري المعروف شُكري عياد يرى في فعل الكتابة؛ وقاحة! أمّا أستاذنا علي عزّت بيغوفيتش، فرأى فيها غرورًا واضحا؛ إذ ما الذي قد يجعلُ كاتبًا يعتقد أن الناس بحاجة لمعرفة رأيه في شأنٍ من الشئون! ورغم ذلك كُلِّه، فقد خلّف كليهما من النصوص المكتوبة الشيء الكثير؛ ذلك أنّهُ لا شيء غير الكتابة يُشبع "أنا" الكاتب والأديب! فالكاتبُ في هو شخصٌ يمتلكُ حدًا أدنى من اليقين، ولو كان يقينًا لا شعوريًا أو حتّى سلبيًا ومُدمِّرا؛ حدًا أدنى يدفعه للإقدام على ذلك الفعل مُجانبًا التواضُع بصورةٍ لا شعوريّة؛ طالبًا إلى العالم الانتباه لشهادته!

من مقدّمة الكتاب

"



عبدالرحمن أبوذكري

أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلد بالقاهرة، وتخرّج في كلية الآداب بجامعتها. نشر عدة مقالات وأوراق بحثية في موضوعاتٍ متنوعة؛ تصُب جميعًا في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مُهتمٌ بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتدادًا لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشّنها سيّد قطب، ورسّخها علي عزت بيغوفيتش، وأثراها عبد الوهاب المسيري. نُشر له كتاب: «أفكار خارج القفص»، وله عدة كتب في طريقها للطبع؛ منها: «في أصول التصوّر الإسلامي»، وترجمة آثار الدكتور كليم صديقي.